على قيد الحياة

* الكتاب: علىٰ قيد الحياة (مجموعة قصصية)
* الكاتبة: مها الخواجه
* مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدىٰ
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدىٰ
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدىٰ
* رقم الإيداع: **22180/ 2022**
* الترقيم الدولي: **978-977-86356-5-2**

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: +20 100 518 6476

فيسبوك: **دار المنتدى للنشر والتوزيع**

صدر عن دار العنقاء للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

9 789778 635652

(مجموعة قصصية)

على قيد الحياة

للكاتبة

مها الخواجه

دار
المنتدى
للنشر و التوزيع

إهداء

إلىٰ زوجي وأولادي

عرفانًا لهم عما أحاطوني به من دعم.

وإلىٰ السنوات التي كتبتني قبل أن أكتبها

❊ ❊ ❊

لا أبغض العالم الذي أعيش فيه، ولكن أشعر بأنني متضامن مع الذين يتعذبون فيه.

إن مهمتي ليست أن أغيِّر العالم؛ فأنا لم أُعط من الفضائل ما يسمح لي ببلوغ هذه الغاية، ولكنني أحاول أن أدافع عن بعض القيم التي بدونها تصبح الحياة غير جديرة بأن نحياها، ويصبح الإنسان غير جدير بالاحترام.

ألبير كامو

النصل

كانت تنتزع جسد ابنتها الصغير من بين أيادي زوجها وأمها، تخفيها خلف ظهرها وتدفعهما بجسدها الذي نحتته الآلام والسنوات، قالت لهما والبكاء يختلط بكلماتها: «لا... ليس ثانية» ثم استدارت والتقطت ابنتها واعتصرتها بين ذراعيها، نظرت إلىٰ أمها وقالت: «لم أسامحك... ولن أكون مثلك»

أغمضت عينيها بألم متذكرة تلك الحادثة التي مرت عليها سنوات طويلة، إنها تتذكر ما حدث جيدًا؛ كانت طفلة في السابعة من عمرها، يتشابه اسمها مع ابنة جارتهم التي تكبرها بعشر سنوات.

تتذكر جيدا ذلك اليوم حين دق طفل من أبناء الجيران باب منزلهم، وطلب منها صحبته لأعلىٰ السلم كما تعودا للعب الغميضة، لاحظت أن في يده ورقة، سألته عنها، فأجابها بأن جارهم الشاب الذي يسكن في البيت المقابل لهم قد أعطاه إياها ليسلمها لها. تتذكر جيدًا أمها التي كانت منحنية تكنس صالة شقتهم ثم ألقت بالمقشة التي كانت بيدها واندفعت نحوهما لتخطف الورقة قبل أن تصل إلىٰ يدها محاولة قراءة ما بها، تتذكر ملامح وجه أمها

وهي تتقلص وتتشنج كلما وقعت عيناها علىٰ كلمات الخطاب التي تتفجر بالغرام وترتد إلىٰ جسدها فينتفض، وتذم شفتيها ثم تفتحهما بالسب واللعن، تتذكر جيدًا أنها كانت تفر من تحت اللطمات واللكمات بينما تلاحقها كلمات أمها المتوعدة إياها بالحبس في المنزل ومنعها من اللعب مع أبناء الجيران.

كانت قد تسمرت في مكانها وقد أطبقت الأم يدها علىٰ الورقة بغضب، ثم استدارت وعبرت نحو الشقة بينما هي واقفة كتمثال علىٰ السلم الصاعد أعلىٰ شقتهم وقد سيطر عليها الألم والرعب، لم يكن يتحرك فيها غير قلبها الذي يرتج في صدرها وعينيها اللتين تتابعان أمها تدخل إلىٰ غرفة أبيها ويدها مطبقة علىٰ الخطاب الغرامي، وهي تغلق الباب خلفها بعنف حتىٰ أنه ارتد ولم ينغلق تمامًا.

تتذكر جيدًا... ساقاها المرتعشتان وهما تحاولان التسلل نحو الشقة، ووقوفها في تلك الزاوية – التي تقف فيها الآن – وعيناها مصوبتان علىٰ فُرجة الباب، تتذكر أبيها الذي انتفض علىٰ سريره من صوت ارتطام الباب، وصراخ أمها حين مدت يدها له بالخطاب:

- كان عليك أن تطيعني يوم أخبرتك أنه آن الأوان، ليتني ما سمعت كلامك يوم جمعتْ أمي بنات العائلة، وأنت فقط من اعترض، خوفًا عليها لصغر سنها، سأخبر أمي الليلة أن ترسلهم وغدًا سيتم الأمر.

تتذكر أنه في اليوم التالي دق باب المنزل: جرت لتفتحه فوجدت أمامها امرأتين غريبتين تسألان عن أمها، واحدة منهما طويلة وبها نحافة واضحة، والأخرىٰ بدينة ومكتنزة الجسم، كانت السيدتان تنظران إليها ثم تنظران لبعضهما وتبتسمان وتسألانها عن اسمها، تنادي علىٰ أمها، فتأتي مهرولة وتستقبلهما بحفاوة وتغدق عليهما واجب الضيافة، قبل أن تدخلهما غرفتها، وتنادي عليها وتجذبها من يدها برفق ثم تجلسها علىٰ حجرها، كانت قد كبرت علىٰ مثل تلك الجلسة،، تتذكر مباغتة أمها لها حين احتضنتها من ظهرها وكتَّفتْ ذراعيها رافعة طرف ثوبها، وتلك المرأة النحيفة وهي تتقدم نحوها لتنتزع عنها ملابسها الداخلية بينما هي تصرخ في فزع:

- أمي أبعديها، ماذا تفعل؟!
- لا تخافي ستكونين هادئة ومؤدبة.

يومها، لم يكن عقلها الصغير قادرًا علىٰ فهم كلمات أمها، ولا إدراك ما تفعله بها، كان عقلها يرفض تصديق أن أمها، وهي التي كانت تنصحها بالحفاظ علىٰ جسدها من الغرباء، تركت امرأة غريبة تجردها من ملابسها التحتية!

لم يشفع لها بكاؤها وصراخها وتساؤلها عم يحدث، انتابها رعب هائل وهي تتابع بعينيها الباكيتين تلك البدينة وهي تفتح حقيبتها وتخرج منها قطعة من القماش الأبيض المطوية بعناية، ثم تفتح طياتها تباعًا إلىٰ أن تستخرج منها شيئا معدنيًا لامعًا، لتسلمه لشريكتها النحيفة، وفي ذات اللحظة كانت أمها قد باعدت بين ساقيها بكل قوتها، فتنقض تلك النحيفة علىٰ لحمها العاري، بذلك الشيء الذي يلمع نصله في يديها، شعرت ببرودة المعدن علىٰ جسدها المكشوف، وكلمح البصر اجتثت المرأة ذلك الجزء من لحمها الحي آخذة معه جزء من روحها البريئة!

تتذكر جيداً أنها قضت ليلتها آنذاك كذبيحة علىٰ يد أمها وتلك الغريبتين، لم تختبر ألمًا مثل ألم الذبح، إلا أنها في اليوم التالي كانت علىٰ موعد مع ذبح جديد، تتذكر، أنه قد طلع عليها ذاك الصباح المعتم وقد تعالت أصوات علىٰ درج البيت، أصوات

نافرة زاعقة متداخلة، صوت أقدام تدق درج السلم صاعدة ونازلة إلىٰ شقة تلك البنت التي تكبرها بسنوات وتشاركها الاسم، كانت أمها تسد فتحة باب شقتهم بجسدها، إلا إنها استطاعت أن ترىٰ والد تلك البنت وقد أمسك ذلك الشاب من رقبته، بعد أن اكتشف أن ذاك الخطاب الغرامي كان لابنته!

هي الآن وبعد تلك السنوات ، تقف في هذه الزاوية وقد استغرقتها الذكرىٰ التي ما فارقتها حتىٰ بعد أن تزوجت وأنجبت هذه الطفلة التي تعتصرها الآن بين ذراعيها، وعيناها مصوبتان نحو نصل بارد بيد امرأة غريبة، ثم تسدد نظراتها نحو أمها، والكلمات تخرج من فمها مُرة متألمة لكنها نافذة ومصممة وحادة:

- لم أسامحك، ولن أكون مثلك.

❊ ❊ ❊

ربما يكون مغلقًا

كانت علىٰ وضعها ذلك منذ أيام، تجلس في غرفتها منعزلة عن الجميع، منحنية الظهر مثبتةً عينيها علىٰ شاشة هاتفها المحمول، تفتحه ثم تغلقه؛ بتوتر وترقب، علىٰ أمل أن تضيء تلك النقطة الخضراء بجوار اسمه، يحزنها اختفاؤه أيامًا لا تعلم فيها عنه شيئًا، رسائلها له مازالت معلقة، وكلما حاولت الاتصال به، وجدت الهاتف مغلقًا ولا تصلها سوىٰ تلك الرسالة المسجلة المعتادة.

هو من قضت معه أجمل الأوقات، يتبادلان الأحاديث وتستشيره في أحوالها، وفي بعض الأحيان كانت تمده بمشورتها ورأيها، أصبح كل شيء بالنسبة لها منذ تعرفت عليه عبر أحد مواقع التواصل الاجتماعي. كان يختفي أيامًا ثم يظهر، يتحدث ويضحك كأن شيئًا لم يكن، وكلما عاتبته تعلل بظرفٍ أو بآخر، أو بعطل في هاتفه! كانت تقبل أعذاره تلك، وإن كانت لم تقتنع بها يومًا!

تَذْكُرُ حينما تحدثت مع صديقتها المقربة، وقد أخبرتها بارتباطها بشخص ما علىٰ الإنترنت، فانتابت صديقتها نوبة من الضحك

وهــي تقــول: «ارتبطــتِ بشاشــة مضــيئة!، إن انطفــأت انتهــت العلاقة؟!»

ما زالت تنظر إلىٰ شاشة هاتفها، تضيئُها ثم تغلقها مراراً، وهي تسأل نفسها:

«ماذا بعد؟! أي علاقة تلك التي تنتهي بضغطة زر؟.. أو بانقطاع إشارة الإنترنت، أو بغياب لا تعلم أسبابه»

كان عليها أن تتأمل كلمات صديقتها، أن تتأمل الغياب والعودة، الأعذار والمبررات، هل صار حتمًا عليها أن تحسم أمرها، فتنجو بقلبها وروحها من هذا الوهم، أو تستسلم لهما وتبقىٰ رهينة تلك الشاشة!

ظلت التساؤلات تتردد بذهنها، تُقلق منامها، وتُنغص أيامها، تاركة لها بالحلق غصة، وبالقلب والعقل فراغًا كبيرًا يحتاج الكثير من الإجابات لملئه.

لعدة أيام كانت تقاوم قلبها ومشاعرها، غير أنها ذات مساء قضته كمساءات كثيرة ترقب تلك الدائرة الخضراء المنطفئة، التقطت هاتفها، أضاءت شاشته وأغلقت مواقع التواصل، ثم أغمضت

عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا، إلا أن صوتا داخلها ظل يردد: «لا يكفي!»

في اليوم التالي غيرت رقم هاتفها، شغلت يومها بأشياء كثيرة علها توقفها عن التفكير. كانت الأيام التي تمر عليها تؤكد لها أنها قد تجاوزت ذلك الألم، واكتشفت كم كان سهلاً أكثر مما كانت تتصوره، لكن... بقىٰ بالقلب ذلك الشيء الذي يدفعها بين الحين والآخر، للنظر من بعيد.

❊ ❊ ❊

انزلاق

بتُّ أتحين كل فرصة تجمعني معه، أختلق أي موقف يجعلنا قريبين، أعلم يقيناً أنني أورط نفسي، حاولت كثيراً الابتعاد وتجاهل تلك المشاعر، لكنني لم أستطع...

حدث ما كنت أخشاه.

نظرة وحيدة خاطفة منه كانت كافية لأن تأسر قلبي وتوقظ كل مشاعري، كانت كافية لأن أوقن أنه يختلف عنهم جميعاً.

كنت قد أيقنت أيضاً بتورطي، لكنني لم أدرك مدىٰ ذلك، إلا حين اقترب مني، حين صار الأمر أبعد من مجرد إعجاب عابر، وصارت مشاعري تختلف في حضوره، لم أعد أعرف كيف سأوقف هذا.

أعترف لنفسي بخطئي، أعاتبني ليل نهار، كان يجب أن أضع نفسي علىٰ مسافة آمنة، كان عليَّ الرحيل، فأنا لست حرة.

❋ ❋ ❋

البيضة

استيقظتُ صباح اليوم ولم أجد أمي في البيت، أخبرتني أختي أنها خرجت ولا تعرف إلىٰ أين، لم يكن من عادة أمي الخروج وحدها، كانت إذا خرجت تصطحب واحدة منا.

كنت أتنقل بين البلكونة والشباك لرؤيتها وهي عائدة، كان الشيخ حسان ينقر علىٰ الميكروفون استعدادًا لآذان الظهر حين رأيتها تدخل شارعنا، وتشير لخالتي بالسلام، توجهت خالتي لمنزلها الذي يقع في أول الشارع، بينما أكملت أمي طريقها نحو البيت، وهي تمسك بيدها شيئًا ملفوفًا تنقله من يد لأخرىٰ بحرص، وحين مرت أمام المسجد رفعت وجهها للسماء وكأنها تبتهل بالدعاء.

جريت بسرعة ونزلت السلم قفزًا، فتحتُ الباب وما كدت أحاول احتضانها كعادتي حتىٰ أبعدتني حاملة الكيس بعيدًا بإحدىٰ يديها، وأشارت لي بالصعود، أثناء صعودي سألتها أين كانت؟

- كنت مع خالتك في مشوار.

- آه يعني روحتوا فين؟ ومأخدتنيش معاكِ ليه؟
- اصبري، أطلع وآخد نفسي.
- إيه اللي معاكي ده؟!

أبعدتْ يدها ونهرتني بنظرة حادة، وأكملتْ صعودها.

توجهتْ أمي مباشرة إلىٰ المطبخ، وضعتْ الكيس الذي كانت تحمله فوق الثلاجة بحرص شديد، ثم دخلت غرفتها ودفعت الباب خلفها بهدوء.

كانت عيناي لا تفارقان باب غرفة أمي وأنا أتسلل نحو المطبخ يقتلني الفضول، مددت يدي فوق الثلاجة وسحبت الكيس، كان خفيفًا حتىٰ ظننته فارغًا!

وضعته أمامي علىٰ الطاولة وفتحته بحرص، وإذ بي أجد داخله لفافة ورقيه مكورة تستقر هناك بعيدا في القاع، مددت أصابعي نحوها لأتبين ما بداخلها، وما إن انزاحت طياتها حتىٰ رأيت بداخلها بيضة! قلت:

«بيضة! بيضة واحدة! اشترت أمي بيضة واحدة!؟»

وأنا أعيد طي اللفافة؛ استدارت البيضة، فرأيت مكتوبا عليها كتابات بمدادٍ أحمر أقرب إلىٰ اللون البرتقالي، غير أنني لم أستطع قراءة أي حرف منها، وحين هممتُ بإخراجها من الكيس أتاني صراخ أمي:

- إنتي بتعملي إيه، هاتي الكيس ده متلمسيش حاجة.

استسلمت لأمر أمي وصراخها ومددت يدي بالكيس المفتوح، فأخذته مني بحرص ونظرت داخله كمن يطمئن علىٰ أمر ما، ثم أغلقته وأعادته مكانه وحين استدارت نحوي كان وجهي ينطق بالتساؤلات، وهي تتحرك خارجة من المطبخ قالت لي: «ده علشان أختك»

كنت أقف مكاني أحاول فهم ما قالته، حين نادتني أن ألحق بها إلىٰ غرفتها. لحقت بها، كانت جالسة علىٰ طرف السرير الذي تنام عليه وحيدة بعد موت أبي، ونظراتها مصوبة بين قدميها، فجلست بجوارها...

- يعني إيه البيضة دي علشان أختي؟!

اقتربت مني وهي تخفض صوتها دون أن ترفع عينيها:

- ربنا يإذي المؤذي، مبتكملهاش فرحة، كل ما يجي نصيب يروح.
- آه، بس برضو إيه دخل البيضة بأختي؟

رفعت عيناها ومالت بجسدها للأمام، ونظرت نحو باب غرفة أختي ثم همست لي:

- خالتك الله يكرمها دلتني علىٰ راجل مبروك، لسه راجعين من عنده.
- آه... وطبعا البيضة دي من عنده!
- دي قاري عليها، وقال لي ادفنيها تحت عتبة البيت.

في الليل كنت أقف في الشباك أراقب أمي وهي تدفن البيضةَ تحت العتبةِ، دخلتُ علىٰ أختي غرفتنا، جذبتُ من فوقها الغطاء وأيقظتُها، جَلَسَتْ مكانها منزعجة مني، حكيتُ لها ما فعلته أمي، كانت تسمعني ووجهها كله ينطق بالحزن، ثم سألتُها

- توافقينَ علىٰ هذه التخاريف؟!

لُفَّتْ وجهها للناحية الأخرىٰ ونزلت دموعها:

- لي إرادةٌ مع أمِّك؟! هي تراني عانسًا وأنا ما زلتُ في العشرين!

كان صوت أختي عاليًا حتىٰ أن أمي قد سمعته في غرفتها، فدخلتْ علينا، ثم نظرتْ إلىٰ أختي نظرة ما بين العتاب والشفقة، فقلتُ لأمي:

- وبعدين؟!
- ربنا يصلح الحال، دلوقتي أي شاب يِخَطِّي فوقها هيخطب من عندنا، وانتي ربنا كرمك وإن شاء الله يكرم اختك.
- ونعرف منين إنها اشتغلت؟!
- لما يجي صاحب النصيب.
- والبيضة بقىٰ تعرف الموضوع ده؟!

التفتت أمي ونظرت إليَّ نظرة ما بين عدم الفهم والغيظ، وما كادت أن ترفع يدها لتضربني حتىٰ جريتُ من أمامها كعادتنا.

قضينا ليلتنا أنا وأختي نتندر بالبيضة والعريس والشيخ المبروك، وجَرْيِ أمي ورائي بعد أن أغاظتها كلماتي، حتىٰ غلبنا النوم.

وفي الصباح سمعنا صوت أمي وهي تستقبل «محمود» ابن خالتي، لم يكن من عادته أن يزورنا، كان محمود متزوجًا بإحدىٰ قريبات أبيه، ورزق منها بثلاثة أبناء، غير أنه _كما سمعنا مرارًا_ حياتهم جحيم، قلت لأختي:

- إيه اللي جاب محمود الساعة دي؟!
- هيكون إيه؟! أكيد حكايته مع مراته.

لكن قطع حديثنا صوت أمي وهي تصرخ في ابن خالتي:

- معندناش بنات للجواز، قوم يابني علىٰ بيتك وعيالك..

نظرت أنا وأختي لبعضنا البعض، ثم صرخنا ضاحكتين في نفسٍ واحد:

- داس علىٰ البيضة.

❊ ❊ ❊

كيس ملح

تَلُفَّتُ حولي، تأكدتُ أنها لا تراني، قفزتُ إلىٰ المطبخ، وكلمح البرق، اختطفتها من الطبق، دسستها بجيب سروالي ثم تسللت خارجة، انتابني الفزع عندما وجدتها تقف أمامي، فأمسكتُ بطرف سترتي أجذبها للأسفل لتغطية ذلك التكور الظاهر في جيبي، كانت تقف في مواجهتي مرسلة يدها أمام وجهي ممسكة بين أصابعها بجنيه ثم أشارت به ناحية الباب:

- اذهبي وأحضري كيس ملح.

إنها عادتها كل يوم في مثل هذا الوقت، ترسلني لشراء أي شيء. أنزلتُ رأسي في حزن وبدموع تملأ عيني رددت:

«كُنت أَعرف»

التقطتُّ الجنيه من يدها، وذهبت لأحضر لها ما طلبت، خَرجتُ من البيت وأغلقتُ الباب خلفي، كنت ما زلت أقف عند العتبة عندما سمعتها تنادي علىٰ أَخَوَيّ ليستعدا لتناول الغداء، سالت دموعي علىٰ خدي، وأنا أردد:

«لماذا ذهبتِ عند ربنا يا جدتي وتركتِني لزوجة أبي؟! هي لا تحبني»

بينما كنت أقف أمام الباب كانت تصلني أصوات ملاعقهم ترن داخل أطباق الغداء الذي أُحْرَمُ يوميًا من الانضمام لهم أثناء تناوله، ولا يتبقىٰ لي بعدهم سوىٰ بعض الفتات، كانت بطني تتلوىٰ من الجوع، رفعت كفي أعتصر بها معدتي التي تؤلمني، بينما رفعت الأخرىٰ لأمسح الدموع التي سالت علىٰ خديّ، فانتبهتُ للجنيه الذي ما زال بين أصابعي، وتذكرت كيس الملح، أدرت ظهري للباب ونزلت السلم، فقد خشيت أن أتأخر فتعاقبني بالضرب كعادتها، قبل أن أخرج إلىٰ الشارع انزويت خلف باب المدخل، أخرجت من جيبي البيضة المسلوقة ودفعتها إلىٰ فمي مرة واحدة.

❊ ❊ ❊

علامات باهتة

خمسة وعشرون عامًا، ولا تزال تحمل ذكرىٰ ما عانته وهي بعمر ابنتها الآن.

خمسة وعشرون عامًا منذ أوقفها جارهم وهي عائدة من مدرستها الواقعة في أول الشارع الذي تسكن فيه، كانت حينها في الصف الأول الابتدائي، وبعد أن أوقفها سألها وهو يمسح علىٰ رأسها:

- علىٰ فين يا أمورة؟

فأجابته:

- مِرَوَّحَة يا عمو، أخدنا واجب آاااد كده

فتلفت حوله، رفع عينيه إلىٰ البلكونة حيث تنتظرها أمها كل يوم فلم يرها، ثم اقترب منها وأشار بيده الأخرىٰ لأعلىٰ:

- إنتي عارفة إن الحَمَام اللي في الغِيَّة فقس وطلَّع زغاليل صغيرة حلوة زيك؟ تحبي تشوفيهم؟
- لمعت عيناها وهي تجيبه:

- الله... عاوزة اشوفهم.

فاصطحبها معه إلى السطوح، حيث عُلَب الصفيح معلقة على الجدران تطل منها حمامات كبيرة، وطلب منها أن تصعد أمامه على السلم الخشبي لترى الزغاليل الصغيرة داخل الصفائح، كان يمسك بها قائلاً:

- متخافيش همسكك علشان متقعيش،

أمسكها من وسطها ورفعها أمامه لتراهم، كانت ذراعه تطوق وسطها بينما يده الأخرى تتحرك على ساقيها، حينها شعرت به يضغطها أمامه ويحتك بأسفل ظهرها فحركت قدميها ودفعت بنفسها للأسفل لتفلت منه، فبادرها بالسؤال وهو يلهث بجانب وجهها:

- إيه مش عاوزة تلعبي معاهم؟!

فهزت رأسها بالرفض:

- لأ، عاوزة اروح..

كان يرفعها أمامه وهي ترفض وترفس بقدميها، تكاد أن تبكي، كانت يداه تمسكانها بعنف متزايد كلما حاولت الفكاك منه

والابتعاد عن جسده الملتصق بها، فأنزلها، ثم أخرج من جيبه جنيهًا ورقيًا ودسه بيدها:

- خدي هاتي حاجة حلوة..

وتركها تمشي.

عندما خرجت من منزل جارهم كانت أمها تقف في البلكونة تنتظرها كعادتها، وحين رأتها تخرج من هناك ضربت يدها علىٰ صدرها وتوعدتها بعلقة ساخنة، هذا ما فهمته من أصابعها حين أشارت لها بالطلوع. وما إن دخلت من باب الشقة حتىٰ شدتها أمها من ملابسها ودفعتها أمامها:

- نازلة ليه من بيت الجيران؟ كُنتِي فين؟!

فأخرجت من جيب مريلتها الجنيه ترفعه بين أصابعها:

- عمو أخدني السطوح ورفعني لفوق أشوف الزغاليل، وعطاني ده أجيب حاجة حلـ...

لم تتم جملتها التي انقطعت بفعل اللطمة التي تلقتها علىٰ خدها، حتىٰ لطمها ثانية صراخ أمها:

- إوعي تنطقي الكلام ده تاني.

فانفجرت بالبكاء وهي ترفع يدها تحمي وجهها فوقع الجنيه علىٰ الأرض، لم تكن تفهم ماذا يستدعي أن تجرجرها أمها خلفها إلىٰ داخل الغرفة، ولا ما يثيرها إلىٰ هذا الحد، كانت تزرع أقدامها بالأرض وتحاول انتزاع نفسها من بين الأصابع التي تطبق علىٰ ذراعها وهي تبكي:

- معملتش حاجة سيبيني.

إلا أن أمها جَرَّتها إلىٰ الغرفة وأغلقت الباب خلفهما، دفعتها أمامها علىٰ السرير، استقرت علىٰ ظهرها، فهجمت عليها وانتزعت ملابسها الداخلية وتفحصتها جيدا.

الأم التي اطمأنت لم تكتفِ بذلك، قامت وأحضرت شمعة أشعلتها وهي تهددها بالحرق؛ إن تكرر ذلك، كانت هي تصرخ تحت يديها والسائل الساخن يكوي فخذيها.

لم تنس أبدًا بكاءها تلك الليلة، ولا ما عانته من بعدها من وجع حَبَسَ أنفاسها وجعلها تطلق صرخة انشرخت لها أحبالها الصوتية حين أرادت قضاء حاجتها، ولا ألمها حين حاولت إنزال ملابسها

الداخلية فوجدتها ملتصقة بفخذيها الملسوعين فانسلخ عنهما الجلد، وتسرب الماء الدافئ من بين ساقيها وهي واقفة، لم تنس أي من ذلك، كما لم تنس حبسها بالمنزل الأيام التالية ثم مرافقة والدتها لها ذهابًا ورجوعًا من المدرسة، والتحذيرات التي كانت تطن بأذنيها، والرعب الذي يصيبها كلما اقترب منها أحد.

رغم مرور السنوات مازال يؤلمها العقاب الذي نالته، وما زال يؤلمها تَذَكُّر صورة والدها عندما كان يرد تحية جارهم أو يجلس معه علىٰ المقهىٰ يتناولان الشاي ويتبادلان الضحك، كانت تتمنىٰ لو أخبرته بما فعل هذا الذي يجالسه، لينتقم لها منه وينال عقابه مثلما عُوقبت، لكن ها هي السنوات قد مرت دون أن تخبره، كانت قد حاولت البوح مراراً، إلا أن صورة أمها وصوتها بأذنيها الذي يأمرها بالصمت كان يسكتها رغما عنها.

هي الأن تجلس محتضنة ابنتها، وتضع أمامها مجموعة من العرائس، وقد أمسكت بيدها إحداهن تشير لها علىٰ مواضع معينة بجسد العروسة كانت قد غطتها ببعض القماش، وهي تكلمها بلهجة حانية وصوت هادئ:

- دنيا حبيبتي، إحنا غطينا هنا ليه؟

وأشارت بيدها نحو العروسة، فأجابتها:

- علشان عيب.

فاحتضنتها وقبلت خدها وهي تقول:

- شطورة، علشان عيب وإيه كمان ؟
- وعلشان جسمنا محدش يشوفه ولا يلمسه.
- ولو حصل غير كده؟

تابعت الطفلة:

- نقول لأ ونصرخ.

فأكملت أمها:

- ونقول لماما وبابا ومنخافش، فاهمة يا دنيا؟!

فتهز الطفلة رأسها بالموافقة... أما هي فتلاحقها الذكري، تقتحمها وتعيد إليها كل لحظات الخوف والألم والخذلان، تمتلئ عيناها بالدموع وتفر متسربة علىٰ خديها، ولا يفيقها إلا يد ابنتها وهي تمسح علىٰ وجهها وتسألها:

- ماما بتعيطي؟ إنتي زعلانة؟

احتضنتها في صمت، ثم تركتها تلعب بالعرائس ودخلت لغرفتها، أغلقت الباب خلفها وهي تمسح دموعها، وقفت أمام المرآة، رفعت القميص عن ساقيها ثم مدت يدها علىٰ فخذيها تتحسس علامات باهتة لحروق قديمة.

❊ ❊ ❊

حلم أم كابوس

بنظراته التي يرسلها ويبترها فجأة، رأيتُه كالحلم، بهالةِ الغموض التي تحيطه، تمنيتُ الاقتراب منه؛ فاقتربتُ كفراشة تهوي.

أكان ذاك الاقتراب بإرادتي حقـًا؟! كنت أوهم ذاتي، فما كان اقترابي إلا بدعوته لي، كنت كلما اقتربتُ قَدمًا، تراجع هو ذراعًا، فاقترب ذراعًا، فيتراجع باعًا، وهكذا، كنت أهوي، حتىٰ صرت داخل الحلم، فراشة تدور وتدور حول النور، ترقص رقصة العشق، ترتشفه، حتىٰ انْتَفَضْتُ علىٰ تلك اللسعة التي أحرقت أجنحتي، جاهدت لأغادر الحلم، أنجو من النار، أكان ذلك حلما!

كان عقلي يرفض تماما تصنيف ما حدث كواقع، هو مجرد حلم، يكفيني لأخرج منه أن أتعامل معه وكأن شيئا لم يحدث علىٰ الإطلاق، وكأنني لم ألتقه يومـًا، وأن ما حدث بيننا لم يحدث.

كل يوم يمر كنت أقنع نفسي بذلك، أو أوهمها، لكن جسدي كان له رأي آخر؛ إذ أعلن عن تلك البذرة، التي نمت في أحشائي.

❋ ❋ ❋

فِي المُوْلِد

قالت أمي: مش فاضل إلا ليلتين علىٰ ليلة النُص من شعبان، المولد هيخلص.

التفت أبي إليها مبتسمًا: عارف

قالت أمي: «حَب العزيز» ناشف

أجاب أبي: طيب

كنت أسمعهما وأنا أقول لنفسي: سأشتري أكبر عروسة من الحلوىٰ الحمراء، أكبر عروسة، فأنا كبرت، وأبي قال لي السنة الماضية أن عروستي ستكبر معي كلما كبرت، لكنه في السنة التي قبلها، قال لي أيضـًا أن عروستي ستكبر في المرة القادمة، لكنه أحضر لي العروسة كالتي قبلها، نعم هي جميلة ولها ثلاث دوائر ورقية متداخلة ملونة فوق رأسها، لكنها لم تكبر، العروسة لا تكبر يا بابا!

في مثل ذلك اليوم من كل عام، كُنتُ أستيقظ فأجدُ الحلوىٰ والألعابَ في انتظاري، ولكن هذه المرة قلت لنفسي سأذهب مع

أبي، وسأشتري عروسة كبيرة، سأشتري أكبر عروسة في المولد، رجوته أن يأخذني معه، فوافق، فاجأتني موافقته المباشرة، كنت أقفز فرحًا وأدور حول نفسي وقد وضعت ذراعيَّ بجانبي خصري مثلما تفعل العروسة تمامًا، ولكن أمي لم تكن سعيدة، التفَتَتْ إلىٰ أبي وقد تغيرت نبرة صوتها: تاخدها ازاي، البت تتخطف في المولد!

التفت أبي وأشار إليها برأسه فسكتت، إلا إنها لم تكف عن تلقينه وصاياها بالانتباه والحذر، وألا يترك يدي من يده حتىٰ لا أضيعَ في الزِّحامِ، أو يخطفَني أحدهم، ثم التفتت لي: إوعي تسيبي إيد بابا، يا كدا يا بلاش تروحي.

ظننت أن أمي قد اطمأنت بعد أن انتهت من وصاياها لأبي ولي، وبعد أن أقسمتُ لها بربنا أني لن أترك يد أبي أبدًا، إلا أنها كانت لم تنته بعد، فحين أخذتني لتساعدني علىٰ ارتداء ملابس الخروج قلت لها: أريد الفستان الأحمر المنفوش، فقالت: طيب، ثم فتحت الدولاب وأخرجت بنطلونًا وقميصًا من ملابس أخي، بكيتُ وقلت لها أنني أريد الفستان الأحمر، فجذبتني وهي تُدخل البنطلون في ساقي: مسمعش حِسِّك.

كنتُ وقتها في العاشرةِ منَ العمرِ، شعري قصيرٌ، سمراءُ ونحيفةٌ، بعد أن ألبستني أمي ملابس أخي بدوْتُ كالولدِ تمامًا، كنت حزينة أنني لم ألبس فستاني الأحمر المنفوش، لكن فرحتي بالذهاب للمولد وشراء أكبر عروسة كانت كافية لأن تمحو أي حزن، فأنا سأرىٰ المولد الّذي سمعتُ عنه كثيرًا، سأرىٰ القرد والأسد في السيرك، والأراجوز، بجانبِ المأكولاتِ والألعاب.

كانت وصايا أمي تلاحقني، وما إن دخلنا المولد حتىٰ أمسكتُ بيد أبي بقوة، كنت أسير بين أرجل الناس أتخبط، فتفلت يدي من يد أبي فيلتقطها قبل أن يقتلني الخوف، كانت حبال من النور معلقة في كل مكان تتدلىٰ منها مصابيح بكل الألوان، تضيء وتنطفئ بإيقاع منتظم، كنت أقف أمام تَلٍّ كبير من الحُمُّص، وبجواره تل آخر من حب العزيز، أكوام هائلة كبيرة كالهرم، وحلوىٰ المولد البيضاء بخطوط حمراء، وأمشاط الحلويات بالسمسم والحمص، كنت أفتش بين كل ذلك عن العروسة، العروسة الكبيرة، أكبر عروسة في المولد، حتىٰ رأيتها، فصرختُ: بابا، وأشرتُ نحوها، لكنه لم يسمعني وسط الزحام والضجيج.

أخذني أبي حيث كان يقف الحاوي بألعابه السحرية، ثم تحركنا بضع خطوات لنقف أمام الأراجوز، لم أكن قد شاهدت الحاوي والأراجوز من قبل إلا في التليفزيون، وأنا الآن أقف أمامهما، لا يفصلنا إلا خطوات، لم يفسد سعادتي إلا تلك الوصايا التي زرعتها أمي في رأسي قبل أن نخرج، وأنني لم أشتر العروسة بعد.

في نهاية رحلتنا داخل المولد، اشترىٰ والدي كيساً من حب العزيز وآخر من الحمص، وثالث به أمشاط الحلوىٰ، ثم بدأنا في رحلة العودة، قلت لأبي: العروسة فين يا بابا، فابتسم ولم يرد، وقبل خطوات من آخر المولد توقف أبي أمام بائع العرائس، فأشرت إلىٰ العروسة الكبيرة فابتسم، واشترىٰ لي عروسة كتلك التي اشتراها السنة الماضية، واشترىٰ حصاناً كبيراً لأخي، كانت فرحتىٰ باحتضانها كافية لأن تنسيني أنها لم تكبر، رجوت أبي أن أحملها مع وعد بالحفاظِ عليها، فوافق، بينما حمل هو الحمُّصَ والحلاوةَ وحبَّ العزيز وحصان أخي.

كان الزحامُ شّديداً في تلك الليلة لأنها الأخيرةِ، النّاسَ تكادُ تكونُ ملتحمةً ببعضها، كنت أقبض بيد علي يد أبي وبالأخرىٰ أحتضن الكيسِ الذي به عروستي وكأن به كنزًا هو كل ما أمتلك، وفجأة

شعرتُ بكنزي يُسحبُ من حضني، فصرخت، لكن تلك البنت الصغيرة التي لاحقتني منذ اشتريت عروستي، كانت تحملها وتعدو بها وسط الزحام.

❊ ❊ ❊

شِباك

من خلف جدار تلك الهالة التي قد احترفتْ إحاطة نفسها بها؛ كانت تراقب نظراته الفضولية، تلك النظرات التي كان يرسلها جاهداً علَّه يستطيع اختراق هذا الغموض الذي تتصور أنها تختبئ خلفه.

كانت قد أدركت أنه علىٰ وشك كشف لعبة الاختباء التي تمارسها من خلف هالة الغموض، فسارعت بتفادي نظراته، إلا إنها ـ بين الحين والآخر ـ كانت تلتفت إليه مرسلة ـ عبر نظرات متقطعة ـ رسائل توحي له أنها قد وقعت في شباكه.

وبينما هو يتلقىٰ تلك النظرات منتشياً، كانت هي تبتسم في سريرتها، وتضيف غنيمتها الجديدة من هذا الصيد إلىٰ حظيرتها.

❋ ❋ ❋

على قيد الحياة

لم تكن المرة الأولىٰ التي يطردها فيها من بيته، فهي إما أن تنصاع لرغبته وأوامره أو يتفنن في تنغيص حياتها لتخضع، رفضها التام لممارساته ضدها وضد رغبتها المشروعة في الحياة جعلتها في نظره ناشزًا.

وسط دموعها التي تُغرق وجهها فتحت باب الشقة وهي تجر خلفها الحقيبة التي دست فيها بعض ملابسها هي وطفلتها بعدم انتظام جعل البعض منها يتدلىٰ ويمنع إغلاقها جيدًا لولا هذا الحزام المشدود عليها، خَرَجَتْ ممسكة بيدها ذراع ابنتها التي تتعثر في نزول السلم ونظراتها حائرة ما بين أمها التي تبكي وأبيها الذي صَفَقَ الباب بقوة جعلتها تنتفض وتنفجر باكية.

خطواتها علىٰ الطريق متعثرة وكأنها تائهة، تتذكر كل المرات التي انتهت فيها مناقشتها معه وحُكمه عليها بترك بيته، غير عابئ بوقت أو بظروف جوية، السماء تسقط المطر علىٰ وجهها وكأنها تشاركها البكاء، أو تتعاطف معها بإخفاء دموعها بماء منهمر،

انتفضت الطفلة في يدها فقامت بحملها علىٰ كتفها وغطت رأسها بطرف الحجاب.

كل خطوة تخطوها تبعدها مسافات عن بيت تألمت فيه، وتقربها لبيت تُعَشِّم نفسها أن تجد فيه راحتها. عندما وصلت إلىٰ بيت أبيها كانت وكأنها عبرت النهر سباحة، ارتمت علىٰ الباب الذي طرقته بيأس ففتحته أمها وفور أن رأتها أسرعت بحمل الطفلة عنها واختفت بها في إحدىٰ الغرف وتركتها خلفها، لم تكن تسمع إلا صوتها وهي تتحدث عن نزولها بالطفلة في هذا المطر، فدخلت ووقفت في وسط الصالة ترتعش بلا حول ولا قوة، نزعت يدها المتيبسة عن الحقيبة وما إن تقدمت خطوة نحو الأريكة بغية الراحة حتىٰ سقطت مغشيًا عليها.

تتلاقفها الأمواج، فتصارعها لتنجو، تستغيث، تصرخ، ثم تصحو فَزِعَة، فتجد أمها وأخيها بجانبها، لسان حالهما ينطق بالتساؤل:

«ما الذي حدث؟»

من تحت الأغطية الدافئة وارتعاش جسدها الذي لا يتوقف، قامت واستندت علىٰ ذراعيها واعتدلت جالسة:

- يريدني أن أنجب له الولد، وإلا تزوج مرة أخرىٰ.

تنظر في عيني أمها وتقول:

- لم يراعِ فَقْدِي لجنيني مراتٍ، لم يأبه لتحذير الطبيب، يريد إعادة الأمر غير عابئ بحياتي.

لم يصدمها رد أخيها عندما قال:

- حقه أن يكون له ولد يحمل اسمه ويرثه، فأنتِ لم تنجبي إلا أنثىٰ.

كانت نظراتها له عتابًا صامتًا، فهو ذَكَر مثله، لكن صدمتها الكبرىٰ كانت في تأمين أمها علىٰ كلامه:

- جربي، لعل الله ينجيك ويرزقك هذه المرة بالولد..

لم تجد سوىٰ دموعها التي انهمرت تغرق خديها ردًا عليهما، لَفَّتْ وجهها عنهما، تمددت واحتضنت طفلتها النائمة بجانبها وأغمضت عينيها.

في الصباح بينما يظناها نائمة؛ سمعت أخيها:

- يجب أن تعود لبيت زوجها، لقد رتبتُ للزواج هنا، لا مكان لها ولا لابنتها، حتىٰ لو تزوج عليها فهذا حقه ولا لوم لنا عليه.

لم تسمع من صوت أمها سوىٰ التأمين علىٰ كلامه:

- معك حق، فنحن لا قدرة لنا به ولا بنفوذه، كيف نعارضه وهو من تكفل بتعيينك، وبيده ضياع مستقبلك.

تردد الكلام داخلها كأنه زلزال يهز كيانها؛ فكتمت صراخًا كاد أن يحطم أضلعها.

في اليوم التالي، جاء زوجها ليصطحبها لمنزله بعدما كَلَّمَهُ أخوها ليصلح بينهما، أو كما فهمت ليتودد إليه ويثبت له ولاءه، لم تنطق بكلمة؛ بل جَرَّتْ حقيبتها وأمسكت كف ابنتها ومشت خلفه!

عند الباب نظرتْ في المرآة المثبتة علىٰ الحائط؛ فرأت جثتها تمشي بلا روح.

❊ ❊ ❊

خطوط وظلال

في ذلك الصباح، كنت قد طلبتُ من تلاميذي رسم صور لبعض الحيوانات، كاختبار لقدراتهم علىٰ محاكاة الطبيعة، نبهتُ عليهم ألا يساعدهم أحد، وفي اليوم التالي مررت عليهم لأجمع كراسات الرسم ثم جلستُ لأتفحصها.

كنت أمسك بالكراسات واحدة تلو الأخرىٰ، أقلب فيها حين استوقفتني إحداها، حيث لاحظت دقة الخطوط وتباين الظلال ودقة الأبعاد في الرسم، قلبت الكراسة لأرىٰ الاسم وأنا ينتابني الغضب، فتلك الخطوط والظلال أدق وأعمق من أن تصدر عن طفلة.

ناديت صاحبة الكراسة وعنفتها وأنا أُذَكِّرُها أنني نبهت إلىٰ عدم ترك أحد يساعد في الرسم، كانت ترتعش أمامي وكلماتها تختنق بالدموع وهي تحلف لي أنها هي التي رسمته بدون مساعدة، اهتز قلبي وأنا أراها ترتجف وتبكي وتصر علىٰ كلامها، فمسحت علىٰ شعرها برفق وطلبت منها كراسة المتابعة، التي كتبت فيها خطاب استدعاء لولي أمرها.

في اليـوم التـالي حـين كنـت بغرفـة النشـاطات بالمدرسـة دَخَلَـتْ عَلَـيّ الطفلـة ممسـكة بيـد والـدتها، التـي كانـت تـزين وجههـا ابتسـامة ودودة وهـي تمـد يـدها لتسـلم علـيّ، وقبـل أن أخبرهـا بمـا حـدث، بـادرتني بـأن ابنتهـا حكـت لهـا مـا كـان بـالأمس، مؤكـدة لـي أنهـا تعـذرني إن لـم أصـدق، ولكنهـا سـتثبت صـدق ابنتهـا بـدليل عملـي، وطلبـتْ مني أمـراً اسـتغربت لـه، لكننـي وافقتها لأرىٰ ما تريد إثباته.

خلال دقائق جمعتُ الأطفال وخرجتُ بهم إلىٰ الفناء كما طلبت مني، ثم جلسنا في دائرة كبيرة كانت الأم تجلس في منتصفها ومعها ابنتها التي احتضنتها وهي تهمس في أذنها ببعض الكلمات وتشير ناحيتي أنا والأطفال.

وجدت الطفلة تهز رأسها وهي تنظر لوالدتها التي شجعتها بابتسامة فبادلتْها الابتسام، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها مجموعة من المجسمات الصغيرة لحيوانات مختلفة، قامت بوضعها علىٰ طرف كراسة الرسم باتجاه أشعة الشمس، ثم وقفت ودارت حول الكراسة ممسكة بقلمها وبدأت في رسم خطوطها حول منحنيات الظلال المنعكسة علىٰ الكراسة بكل دقة ومهارة.

كنت أنقل نظري بين الأم وطفلتها وأنا أرىٰ تشجيعها لها ونظرات الفخر بها، دمعت عيناي وأنا أستدير لأغادر الفناء فيما كان باقي الأطفال يرفعون أيديهم أمام الشمس ويدورون بأقلامهم حول ظلالها المنعكسة علىٰ صفحاتهم البيضاء.

❊ ❊ ❊

دهب صيني

كانت فرحة «نجاة» بزواج ابنها البكر لا يسعها قلبها، فقد اختار فتاة تراها ذات خلق وجميلة كما تمنتها، لتعوض بوجودها البنت التي لم تستطع أن تنجبها بعد أن أنجبت الولدين، كانت تقول عنها (بنت زي الذهب) ولم تتأخر هي وزوجها «ابراهيم» في مساعدة ابنهما في الزواج، فسعادته من سعادتهما.

نجاة التي كانت مريضة بمرض مزمن يؤثر علىٰ حركتها؛ وجدت في زوجة ابنها ابنة لها تساعدها في أعمال المنزل عند حضورها لزيارة العائلة، إلا أن إبراهيم لم يكن يطمئن لها؛ حيث لاحظ أنها دائما لا يهمها إلا ذاتها، وتطالب ابنه بأشياء فوق طاقته، وتتطلع لما يفوق قدراته.

عندما تَخَرَّجَ الابن الآخر في الجامعة، كان طموحه أن يؤسس مشروعًا ليبدأ به مشوار حياته، أشارت نجاة علىٰ زوجها أن يساعده كما فعل مع ابنهما الأكبر، لم يجد الأب ما يفعله سوىٰ أن يبيع الشقة الكبيرة ويشتري أخرىٰ أصغر ليستطيع من فارق السعر أن يساعد ابنه ليبدأ مشروعه، الأمر الذي أثار حفيظة زوجة ابنه

الأكبر وأظهر عليها الضيق، ولم ينتبه لها سوىٰ ابراهيم الذي كان يبدو للجميع هادئا، ولكنه واعٍ لكل ما يحدث.

كان إبراهيم قد قضىٰ جزءًا من حياته في السفر والعمل في الخارج، اصطحب في بعضه زوجته وولديه معه، وفي البعض الآخر كان يبعث الأموال لها لتؤثث البيت وتدبر مصاريف الأولاد من دراسة وكساء ودواء ومعيشة، وبعد عودته واستقراره كان كل ما يملكه هي تلك الشقة الكبيرة التي اضطر لبيعها، وبعض القطع الذهبية التي كان قد أحضرها معه هدية لزوجته.

استعانت نجاة بزوجة ابنها الأكبر لمساعدتها في ترتيب الملابس وأطقم الصيني، تمهيدًا للانتقال إلىٰ الشقة الجديدة، أما تلك العلبة التي احتفظت بداخلها بالذهب، فقد دستها بين طيات الملابس، فأشارت عليها زوجة ابنها أن تحتفظ هي بالعلبة بشقتها صونًا لها من الضياع أثناء النقل، فارتضت نجاة واطمأنت لهذا الحل.

بعد أشهر قليلة من الانتقال وترتيب البيت الجديد، تعرضت نجاة لأزمة صحية شديدة، استمرت لفترة من الوقت فارقت بعدها

الحياة تاركة وراءها كل شيء، وكانت قد أعلمت زوجها بما فعلت بالذهب وأوصته بتقسيمه بين الولدين.

بمجرد الوفاة انقطعت زوجة الابن الأكبر عن الزيارة، حتىٰ أنها لم تكن تستجيب لتلميحات زوجها باحتياج والده إلىٰ بعض المساعدة، واكتفت بأن تبعث بالحفيدين لزيارة جدهما، الذي حَدَّثَ نفسه بأن إحساسه تجاهها منذ البداية كان صادقا.

لم يشغل ابراهيم جحود زوجة ابنه، ولكن ما كان يشغله هو الأمانة التي ائتمنتها عليها نجاة، وكان يداخله شعور لا يطاوع نفسه في تصديقه، فلقد مضت عدة أشهر منذ وفاة صاحبة الأمانة دون أن يصله أي خبر عنها من ابنه أو زوجته، ولما كان إبراهيم قد قرر أن يصدق هواجسه فلم يخبر ابنه، ولكنه تحين الوقت واتصل علىٰ زوجة ابنه طالبًا منها الحضور ومعها الأمانة.

غابت لفترة طويلة ولم تحضر أو تعيد الذهب كما طلب منها، فعاود محادثتها ولكنها تحججت بانشغالها، فأخبرها أنها إن لم تفعل سيُعلم ولده بما حدث منها، فأسرعت بالحضور، وعندما استقبلها وجلست أمامه، أخرجت من حقيبتها العلبة وأعطتها له، ثم سألته عما بداخلها فاندهش متسائلا: ألا تعلمين ما بداخل هذه

العلبة؟! فأجابته بثقة أنها تسلمتها من المرحومة مغلقة وها هي تعيدها اليوم مغلقة، لكن ابراهيم لم يرد واكتفىٰ بأن أخذ العلبة من يدها.

هو يعرف القطع الذهبية قطعة قطعة، ويتذكر مناسبة شراء كل واحدة منها أيام سفره، ولكنه تفاجأ عندما فتح العلبة بأن القطع ليست هي التي كان يعرفها، كانت زوجة ابنه تخفي ارتجاف يديها وهي تتحاشىٰ النظر في عينيه عندما كانت تعيد عليه قولها، أنها احتفظت بالعلبة مغلقة واحضرتها كما أخذتها، ثم تركته وسارعت بالانصراف.

قضىٰ ابراهيم ليلته يقلب في القطع الذهبية وهو يساوره الشك...

«أتكون نجاة قد بدلت القطع بأخرىٰ!؟ ألم يعجبها ذوقي في الاختيار ولم تُرِدْ أن تحزنني؟ ربما بدلتهم زوجة ابني! ولكن لماذا؟ وإن حدث كيف أثبت ذلك!؟»

عاد بذاكرته ليوم رجوعه من السفر واستقبال نجاة له وسعادتها الكبيرة بهديته لها، وقولها: أنها اعتبرتها شبكتها التي لم تحصل عليها عند زواجهما، وكانت ترتديه فقط في المناسبات ثم تعود

لتضعه بعلبته وهي تنظر لكل قطعة بسعادة وكأنها كنزها الثمين، تذكر أنه عندما كان يسألها: لماذا لا ترتديه دائما؟، كانت تقول له: «أنها تخاف أن يضيع منها أو يفقد بريقه، وأنها تفضل أن تحتفظ به من أجل أولادها»

ظل يحدث نفسه، أن نجاة لا يمكن أن تفعل ذلك أبداً... الأسئلة التي ظلت تردد علىٰ باله أرَّقَت منامه طوال الليل. عندما أطل الصباح، كان قد عزم علىٰ الخروج للصاغة ليقطع الشك باليقين، انتظر حتىٰ انتصف النهار وخرج ومعه علبة الذهب يضعها تحت إبطه، يضغط عليها بذراعه ويقبض كفه عليها، فهي كل ما تبقىٰ من ذكرىٰ لنجاة وأيضا من أموال ليهبها لولديه، في الصاغة سأل أولاً عن ثمن الذهب لهذا اليوم، واطمأن أنه سيجني مبلغًا كبيرًا.

غير أنه بعد ساعة كاملة قضاها في التنقل من صائغ لآخر عاد لمنزله وهو يحمل العلبة التي ما إن دخل البيت حتىٰ قذفها أمامه لتتبعثر محتوياتها، ثم ذهب ووقف أمام صورة زوجته يتزاحم الحزن في روحه وهو يتذكر فرحتها بزوجة ابنها واحتوائها لها كابنتها التي لم تنجبها، وجملة واحدة تتردد في أذنيه، الذهب صيني.

حِبَال

الأمر أشبه بكوني أقفز من فوق بناية والناس يظنونني أطير، لا أحد يعلم مرارة ما أقاسيه، أحاول جاهدة التشبث بجدران حياتي؛ كي لا تنهار، أرمم الشروخ قدر استطاعتي، بالمقابل هو يزيدها.

أشعر كأنني لاعبة أكروبات بسيرك، فتارة أمشي علىٰ الحبل وأحاول التوازن، وتارة أخرىٰ أتجنب رشق السكاكين التي يقذفها، وفي المساء أواجه الأسد المفترس، أستسلم له بكل طواعية؛ لينهش ما يشتهيه من جسدي.

أقوم بعدها ألملم أشلائي، أحتضن صغاري، أفرد جناحيَّ المهشمين لأظلل عليهم، ليناموا في أمان، وأثناء نومي أشعر به يحوم حولي كوحش جائع، تلفحني أنفاسه التي تلهث بجانبي، أستيقظ فزعًا، أجده بجواري يتأملني بعينين جائعتين، أتكور علىٰ نفسي، أغوص في خوفي، أذرف

دموعي علىٰ نفسي وقدري، لأنهض في الصباح عازمة علىٰ تغيير هذا القدر، فأُوَاجَه بثورة عارمة.

الجميع ينهرني ويردني إلىٰ أسره، بل ويزيدون من تكبيلي وترويضي؛ ليتمكنوا من تقديمي له علىٰ طبق مزين بالعادات والتقاليد، فتنفتح شهيته أكثر!

❊ ❊ ❊

اتهام مشروع

بعد اتصال هاتفي من والدتي تخبرني فيه ألا أتأخر في العودة إلىٰ المنزل، كنت أسرع الخطىٰ وكأن شيئًا يطاردني، كانت الساعة قد تخطت العاشرة مساءً بعد انتهاء ورديتي في المشفىٰ الذي أعمل به، كلمات والدتي مازالت تطن بأذنيّ وهي تذكرني كعادتها بكلام الناس وتأثيره علىٰ سمعتي، وأنها لن تدور علىٰ البيوت تشرح لهم طبيعة عملي.

بعد الكلمات التي أمطرتني بها كنت أتعجل في خطواتي يتملكني الشعور بأن كل العيون بالطريق تراقبني وأن كل شفاه تتحرك تتكلم عني وكل التفاتة تقصدني أنا، أنا فقط من بين السائرين بالشارع، كنت أتلفت حولي وجسدي يقشعر من اقتراب أي أحد مني، يعتريني خوف لا أعرف مصدره لكنني كنت أنفضه من رأسي إلا أن جسمي أصر علىٰ إنذاري بالخطر، فلم أُكذب حدسي وبالتفاتة للخلف رأيته يتبعني.

أسرعت أهرول من شارع إلىٰ آخر وكان خلفي لا يفلتني، خطواته تلاحقني وكلما اقترب مني مددت في خطواتي حتىٰ كدت أن

أجري، كانت تحضرني ساعتها نصيحة أمي أن البنت المحترمة لا تلتفت لمعاكسة أحد ولا ترد عليه، فقط تسرع في مشيها وكأن شيئًا لم يكن، لكنه كان خلفي يقترب أكثر وأكثر حتىٰ سمعت صوت أنفاسه تلهث خلفي وانتفض جسدي حين مد يده وحاول أن يلمسني، كنت أرتجف وأنفاسي تتلاحق وتملكني خوف وغضب هائلين، هممت أن أستغيث بالناس وأصرخ متحرش.

لكن صوتي تحشرج وتراجعت عن فعل ذلك حين استعدت مشهد الفتاة التي كنت قد رأيتها بالأمس في محطة المترو، وهي تحاول أن تدافع عن نفسها ضد من وقفوا ينتقدونها، بعدما لطمت أحد الشباب علىٰ وجهه متهمة إياه بالتحرش بها، كانت الأصابع تشير إلىٰ ملابسها التي وصفوها بأنها تكشف تفاصيل جسدها، ورغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف مساء إلا أن بعضهم علقوا علىٰ تواجدها وحدها في الخارج بهذا الوقت، قلت لنفسي:

«ماذا لو لم ينصفني أحد؟، أو أن ينكر ذلك المتحرش فعلته؟»

نفضت الفكرة من رأسي وجريت مبتعدة.

كنت مازالت أسرع الخطىٰ لأجعل بيني وبينه مسافة آمنة لي ولكنه كان يقترب حتىٰ صار كظلي، ثم بدأ يقذفني بكلمات وإشارات حولت الخوف بداخلي إلىٰ نار اشتعلت بجسدي، والتي علىٰ أثرها أردت الالتفات لسبه وضربه بما في قدمي وليحدث ما يحدث، كنت أقاوم غضبي حتىٰ لا أفعل ما نهتني عنه أمي مرارًا وتكرارًا وقالت لي أنه عيب وفضيحة للبنت، إلا أنني وفي لحظة استجمعت شجاعتي واتخذتُ قراري ضاربة بنصائحها عُرض الحائط، وبكل عزم توقفت وسط الطريق والتفتتُ نحوه، ثم تشبثت به بكلتا يديّ وانفجرتُ صارخة:

- «النجدة... لص»

❊ ❊ ❊

دموع الفرح

- «فرح بنتي لازم يكون في الصيف وأرتب له على راحتي»

لم تكن تكف عن ترديد تلك الكلمات كلما جمعتها بقريباتها أو جاراتها جلسة ود أو مناسبة عائلية، كانت ترددها من قبل أن يأتي لابنتها (العَدَل) ثم صارت كـ (اللبانة) في فمها بعد أن جاء صاحب النصيب.

خطيب ابنتها، الذي فاجأها بتجهيز مسكن الزوجية ولم يعد ينقصه إلا وجود العروسة، جاء ليحدد موعد الزفاف، لم يكن ليثنيها عن حلم حياتها الذي خططت ورتبت له، فكان ردها:

- كمان ثلاث شهور، فرح في الشتا لأ..

فالتفت لخطيبته معترضًا:

- نشوف رأي العروسة الأول؟!

بدون أن تتكلم التفتت ناحية ابنتها، ووجهت إليها نظرة صارمة، أوقفت الكلمات على شفتيها، مما دفعها أن تفز من مجلسها،

تحبس دموعها وهي تجري نحو غرفتها وتصفق خلفها الباب، ذلك الباب الذي لم تفتحه رغم إلحاح طرقات أمها وتوسلاتها، إلا مرة واحدة قاصدة الحمام، فسارعت أمها بالدخول ووضعت لها طعاماً وماء، وأخرجت لها ملابس من الدولاب، ثم خرجت مسرعة والبكاء يخطف أنفاسها.

لكنها بعد عدة أيام فتحت، فصرخت أمها حين رأتها ذابلة منهارة. أعدت لها الطعام، فرفضت، ألحت عليها وأطعمتها في فمها كالأطفال، لكن ما إن نزل الطعام معدتها حتىٰ تقيأته، مراراً وتكراراً.

الأمطار لا تتوقف، ولم يتوقف ذبولها، والجيران الذين ينتظرون الصيف ليشاهدوا زفافها، وصلتهم الدعوات ليحضروه بعد أسبوع! ووسط دهشتهم رأوا الزينة التي نُصبت علىٰ واجهة البيت.، ودرات التساؤلات:

«ألم تكن تقسم أن فرح ابنتها لن يكون إلا في الصيف؟!»

القاعة تكاد تكون خالية، والشوارع شبه الخالية صارت بحيرات تتشكل وتتسع تحت السماء التي لم تتوقف عن المطر منذ يومين،

كانت هي تقف بعيونها المحتقنة بالدموع لا تكاد تميز أحدًا، تتقبل التهاني والتبريكات بابتسامة مرسومة علىٰ شفتيها، تتحرك بآلية وكأنها غائبة عن الوعي حتىٰ عندما مازحتها إحدىٰ القريبات وهي تكتم ضحكاتها:

«شكل العروسة لحست المغرفة»

فبادلتها ابتسامة باهتة، ثم التفتت تنظر لابنتها، تهز رأسها وهي تمسح دموعها وتقول:

«آه»

اتخذت لنفسها مكانًا بعيدًا عن المعازيم ووقفت تنظر للعروس التي تغالب نفسها علىٰ الوقوف ومبادلة التهاني محاولة إخفاء شعورها بالتوتر وارتجاف يديها، تتابعها وتحتضنها بعينين تفيضان بالدموع وشبح ابتسامة يتسلل إلىٰ شفتيها لرؤية ابنتها بثوب الزفاف، بينما لم يفارقها ذلك الشعور بالخنجر الذي انغرس بصدرها، يوم لطمت خديها عندما وجدت ذلك الشريط الرفيع الظاهر عليه بوضوح خطين أحمرين مندس بين طيات الملابس.

❊ ❊ ❊

شق بطن

كان قرار الطبيب أني بحاجة لإجراء عملية جراحية بالمنظار لمعرفة سبب تأخر الحمل ومعالجته، الأمر الذي أرعبني، أخبرته أنني أخاف الجراحة، طمأنني أنها عملية بسيطة عبارة عن ثلاثة جروح لا يتعدىٰ الواحد منها السنتيمتر، ولا تترك أثرًا في الجسم.

جاء اليوم المحدد لإجراء العملية، كنت في غاية التوتر والقلق، لم أنم تقريبا ليلتها، ذهبت أنا وأمي للمستشفىٰ مبكرًا، أنهينا إجراءات الدخول وتم حجز غرفة لي، جاءت الممرضة لتحضيري لدخول غرفة العمليات، طلبت مني نزع جميع ملابسي وارتداء رداء خاص بالمستشفىٰ، ثم اصطحبتني لغرفة العمليات، قامت بفتح ردائي وساعدتني علىٰ الاستلقاء علىٰ الطاولة الموجودة بمنتصف الغرفة، كنت أرتعش خوفًا وأنا اتمدد أسفل تلك القبة المضيئة علىٰ الطاولة الباردة جدا كأنها رف بثلاجة، مما جعلني أنتفض وهي تلامس جسدي، ثم غطتني بملاءة رقيقة باردة، ها أنا ممددة علىٰ طاولة العمليات أكاد أموت رعبًا.

ورغم أننا في شهر أغسطس إلا أنني أشعر ببرد يفتك بعظامي، دقات قلبي تكاد تتوقف وأنا أتابع التحضير للعملية، أرىٰ طاولة عليها أدوات مختلفة، الممرضات يتكلمن ويضحكن وهن يأخذن أوامر الطبيب، بدأت إحداهن بتركيب «الكانيولا» في ذراعي وثبتتها باللاصق الطبي، طبيب التخدير يقف عند رأسي ويسألني بعض الأسئلة وأنا فقط أهز رأسي، بدأ بدفع المخدر إلىٰ عروقي، أحسست ببرودة المخدر تسري في ذراعي، ثم دوار...

شعرت أنني أغرق، الأضواء تختفي، الأصوات تخفت.

جسدي يرتجف بشدة، ألم شديد مرعب بجزئي السفلي، وكأنها كلاب تنهش جوفي وأمعائي، حاولت أن أتحرك، ذراعاي مثبتتان، عيناي ملصقتان، وهناك شيء محشور بحلقي يمنعني عن الصراخ، كنت أهتز وانتفض بشدة محاولة انتزاع نفسي من هذا الكابوس المؤلم، سمعت أصواتًا تقترب وتبتعد، الطبيب ينادي بزيادة جرعة المخدر، والممرضات تتكلمن وأخريات تضحكن، كنت أريد الصراخ، أنا أتألم، ما الذي يضحككن هكذا. لم تمض لحظات، شعرت بثلج يجمد أوردتي، وغرقت في اللاشيء مرة أخرىٰ.

كنت كمن يطفو على سطح الماء، ثم يغوص مرة أخرى، الأمواج تتلقفني، شيئًا فشيء استعدت الإحساس بجسدي وأطرافي وبدأت أستفيق، الآلام مرعبة، أبكي، أستغيث، أنادي على الطبيب:

- لقد أفقت أثناء العملية وشعرت بكل شيء.
- لا، أنت فقط كنت تحلمين.

غمرني شعور بالغضب:

- لا، لقد أفقت، شعرت بأن بطني مفتوحة نصفين، شعرت بكل ألم، سمعت أصواتكم..

تركني دون تعليق، ثم رأيت الممرضة تدس الدواء في المحلول المعلق بذراعي... كنت ما بين اليقظة والنوم حين سمعت الطبيب يهمس لوالدتي:

- لم يصلح المنظار، اضطررت لفتح البطن.

❊ ❊ ❊

صفاء

طرقات على الباب أعادتها لوعيها.

كانت صفاء تجلس في غرفتها ممددة على سريرها تضع يدها على بطنها تتحسسها بحزن، مُرْهِفَة سمعها لتلك الجلبة التي تأتي من الشباك، وصوت المولود الذي يخترق سمعها، تململت في فراشها، هي لا تريد رؤية أحد، تريد الاختفاء عن العالم، فقد آثرت الوحدة بعد كل ما عانته، لم تعد تحتمل نظرات التساؤل ومصمصة الشفاه على حالها.

كانت اليد التي تطرق خشب الباب لا تمل ولا تتعب، فاندفعت من فراشها وتوجهت نحو الباب، وقبل أن تصل يدها إليه، سمعت حماتها تناديها وتواصل الطرق، ما إن فتحت الباب حتى اندفعت كلمات حماتها وقد جاءت متتابعة تستفسر عن سبب تأخرها، وتؤنبها على عدم الحضور للتهنئة بالمولود واستقبال الضيوف، فكيف تتأخر عن سبوع أخت زوجها!، تقلصت الابتسامة التي كانت تحاول استقبال حماتها بها، اعتذرت عن التأخير، وأخبرتها أنها قادمة.

بعدما أغلقت الباب ونزلت سُلَمَتَيْن، تذكرتْ علبة الهدية التي كان أحضرها زوجها لتقديمها للمولود، عادت وأحضرتها، نظرت لنفسها في المرآة بحزن ثم أغلقت الباب وتابعت النزول خلف حماتها.

أثناء نزولها كانت حماتها مازالت تكلمها:

- بقالك سنتين، مآنش الآوان تفرحينا؟!

تنهدت صفاء بضيق وهي تحبس دموعها، فهي لم تنسَ لها معايرتها، وتذكيرها بنقصها في كل مناسبة..

- كله بأمر الله، بنحاول والأمل في ربنا كبير.

مصمصت حماتها شفتيها، وهي تدخل من الباب

- طيب ادخلي واعمليلك حِس

ثم رفعت صوتها بالتكبير والتهليل:

- الله أكبر في عين الحسود، ربنا يبارك ويكتر البنين والبنات.

ثم أشارت لبناتها:

- قومي انتي وهي ولعي الفحم للبخور، وجهزي اختك والمولود للسبوع..

دخلت صفاء خلف حماتها، سلمت علىٰ الحاضرين، ثم وقفت مترددة أمام باب الغرفة، أتدخل لتقديم هدية المولود أم تتجاهل رغبتها؟!، فجأة جذبتها حماتها من ذراعها وأبعدتها عن باب الغرفة..

- معلش بلاش تدخلي عليها، استني لما تخرج هي، أصل تتكبس ولاَّ لبنها يُقْطَع.

وقع كلامها علىٰ صفاء كضربات سكين، فدست العلبة الصغيرة في جيب عباءتها، وانتابتها آلام مبرحة ببطنها جعلتها تنسحب إلىٰ المطبخ وهي تهز رأسها وتكتم دموعها.

وقفت في المطبخ تمسح دموعها وتمسك ببطنها التي تتقطع من الألم، كانت تقاوم ألم بطنها وألم نظرات زوجها كل ليلة، وألم تذكرها يوم أخبرتها حماتها برغبتها بتزويجه من أخرىٰ، لأنها تريد رؤية أحفادها منه، كانت تقف بلا حيلة سوىٰ البكاء، قالت لنفسها: حتىٰ أمي لا تكف عن معاتبتي

علىٰ رفضي لابن عمي حتىٰ بعد أن سافر وتزوج ورزق بطفلين.

قطع ذكرياتها صوت رنين الهون النحاسي، بتتابع طرقات يده ما بين قعره وحوافه، فتقدمت خطوتين لباب المطبخ، كانت الصالة تتموج بدخان البخور، ورأت أخت زوجها الكبرىٰ تحمل إبريق السبوع المزين بالزهور والعملات الورقية، وحماتها قد أحضرت (منقد) الفحم يتصاعد منه الدخان بتلك الرائحة التي تعلق بجدران البيت، وإحدي الحفيدات تحمل الصينية وبها السبع حبوب مخلوطة بالبخور والملح الخشن وقد زرعت بها سبع شمعات.

كان الجميع قد داروا بمحاذاة جدران الصالة ـ التي أُفرغت مما بها منذ الأمس ـ سبع دورات، ثم جلسن حول الصينية التي وضعت وسط الصالة وبجوارها المنقد الذي تتعالىٰ منه أعمدة دخان البخور، ومع دقات الهون النحاسي بدأت طقوس الرقية، كانت حماتها تضع المولود مرتديا ملابس السبوع البيضاء المطرز عليها اسمه، في الغربال المزين بالتُل وشرائط الساتان والزهور، وتمرره من فوق البخور وهي تهزه وتقول:

- رقيتك واسترقيتك، من شر العين.. قلَّعْتَك حرز، ولبستك حرز، حرز الحسن والحسين..

ثم أكملت مع الزغاريد ودقات الهون التي تجلل في فضاء الصالة:

- اسمع كلام أمك متسمعش كلام ابوك، اسمع كلام ستك أم أمك، متسمعش كلام ستك أم ابوك.

ثم جاء دور أم المولود لتخطو فوق البخور والنساء ترقينها:

- الأَوِّلة بسم الله، والتانية بسم الله، والتالتة... والسابعة رقوة محمد ابن عبدالله

كانت صفاء تقف علىٰ باب المطبخ وترسم علىٰ وجهها ابتسامة هادئة، تواجه بها كل من ينظر إليها، اقتربت منها حماتها وهي تحمل المولود وتضعه بين ذراعيها

- عقبالك، واشيل حفيدي يا رب..

احتضنت صفاء الطفل الصغير وجسدها يرتعش، ضمته لصدرها وشعرت بدفئه وأنفاسه الهادئة، كانت نظراتها مثبتة علىٰ وجهه، سرحت للحظة وتخيلت أنه ابنها وهذا حفل سبوعها هي، حتىٰ

أفاقت على يد حماتها تأخذه من حضنها لتحمله فتاة أخرى وهي تقول:

- من إيد لإيد يكبر ويزيد..

شعرت صفاء في تلك اللحظة أنها انتزعته من أحشائها وعاودتها الآلام مرة أخرى، فلم تحتملها هذه المرة ووقعت مغشيا عليها.

عندما أفاقت وجدت نفسها على سرير بمستشفى، ومحلول معلق بذراعها، وما زالت آلام بطنها لا تحتمل، نظرت حولها، فوجدت أمها وزوجها ينظران لها بلهفة وخوف.

مسحت أمها على رأسها وطمأنتها

- هتبقى بخير إن شاء الله

وابتسم لها زوجها

- الحمد لله على سلامتك..

بعد دقائق دخل الطبيب ليطمئن عليها

- إيه حال المريضة بتاعتنا؟!

تلهفت صفاء لسؤال الطبيب

- أنا فيا إيه؟! إيه اللي حصل؟!
- والله انتي جاية وعندك نزيف داخلي بالبطن..

تساءلت باستغراب:

- نزيف...؟!

أكمل الطبيب:

- في الأول شكينا إنه حمل خارج الرحم، لكن بعد الفحص اتضح إنه كيس دم انفجر، واضطرينا نعمل جراحة.

كانت أثناء حديث الطبيب تتبادل نظراتها مع زوجها وأمها، في محاولة منها لفهم ما يقوله، ثم أشار الطبيب أن هذه الأكياس شائعة في مثل حالتها ويسببها مرض بطانة الرحم المهاجرة.

بعد أيام خرجت من المستشفى، بعد إخبار الطبيب لها بضرورة المتابعة للتأكد من عدم عودة الأكياس الدموية، مرت ثلاثة أشهر بعد الجراحة وعاودتها الآلام مرة أخرى، أنبت نفسها أنها لم تلتزم

بالمتابعة مع الطبيب، وأيقنت أن الأكياس عادت للظهور مرة أخرىٰ.

كان الألم لا يغادرها، وأخبرها زوجها بأنه حدد لها موعدًا مع الطبيب، في اليوم المحدد وفي طريق نزولهم طرقت باب حماتها، وعندما فُتح الباب أخبرتها وهي تغالب دموعها

- أنا موافقة، زوجيه..

ثم أكملت نزول السلم، تَبَادَلَ زوجها وحماتها نظرة استغراب في صمت، نزل زوجها خلفها وأثناء الطريق كانت صامتة حتىٰ أنها لم تنظر إليه، في العيادة ومع عمل السونار للاطمئنان ابتسم الطبيب

- عاوزين ولد ولا بنت؟

❊ ❊ ❊

جنوح

استوىٰ عودها وأينعت فاكهته، فتطلعت العيون إليه، ملتمعة بشهوة القطف، كان قلبها لم يزل غضـًا لـم يمسسه حب، ففرت من كل نظرة أو التفاته واستعصمت روحها بروحها، لكن إلىٰ حين.

وعلىٰ غير موعد، أشرق الحب في قلبها، عينان تلمسانها ثم تبتعدان مرتجفتين، ثم ترتدان إليها بشهوة القرب، هو وحده من تمنت أن تمنحه فاكهتها، هو فقط من يستحقها، فتواعدا، متوهمان النجاة من أعين المترصدين، التي تعقبتهما وأوشت بهما، وتحت مقصلة الفضيلة والشرف نُحر الحب.

عُودُها الذي كان قد استوىٰ، صار يابسًا جافًا بلا حياة، وفاكهتها التي كانت أينعت اهترأت وانزوىٰ بريقها، ثم فارقتها الروح، بينما كان الجسد يُزَفُّ، أجوفًا فارغًا، في عُرسٍ تكبله الزهور.

❊ ❊ ❊

خطوات

انشق عنها الشارع فجأة تعدو بين المارة، جسد نحيل في العاشرة يغطيه جلباب قديم مهترئ، وخصلات شعرها الذهبي تنفر من تحت ذلك الوشاح الذي يحيط براسها الصغير تقلب عينيها الزائغتين بين أمواج البشر، خوف وفزع يتملكانها بينما صدرها يعلو ويهبط بتسارع شديد، تستحث قدميها المجهدتين للمضي قدمًا.

بخطواتها المرتبكة تقطع الطريق وسط صرخات المارة وارتفاع نفير أبواق السيارات، متجاهلة أضواء إشارة المرور التي لا تفهمها، تلفتت يمينا ويسارا ثم قفزت فوق الرصيف، وقفت للحظات تسترد أنفاسها مرسلة بصرها نحو الرصيف المقابل، رأته يتلفت تتفحص عيناه المارة متحينا الفرصة لقطع الطريق والعبور نحوها، تشنجت يدها علىٰ الكيس البلاستيكي الذي تحمله وأطلقت العنان لقدميها فحملنها لتختفي وسط المباني العالية.

من شارع إلىٰ شارع أخذتها خطواتها ومع كل خطوة كانت تلتفت خلفها لتتأكد أنها ابتعدت وأنه لم يعد يتبعها..

أخبروها في دار الرعاية أنها وُجدت تبكي في إحدىٰ محطات مترو الأنفاق، طفلة في الخامسة من عمرها لا تعرف إلا أن يدها انفلتت من يد أمها وحملها الزحام بعيدا، لا تتذكر اسم بلدتها ولا تعرف عنوانا تخبر به أحدًا ممن اسوقفهم بكاءها، اسمها فقط هو الذي تتذكره بصوت بعيد يتردد داخل رأسها «همي يابديعة، مدي رجلك»

داخل الشوارع الملتوية تكمل هروبها بينما تغرق خديها الدموع، حطت رحالها علىٰ أحد الأرصفة ملتقطة أنفاسها، ممدة رجليها تفركهما من الألم ملتفتة يمينا ويسارا تستكشف المكان حولها، اعتدلت وفتحت الكيس الذي تحمله وأخرجت منه كسرة خبز، قربتها من فمها لكن نشيجها منعها أن تقضمها، عادت بذاكرتها لذلك اليوم في الدار حيث وجدت نفسها وحيدة غريبة في مكان غريب، يقولون عنه دار رعاية أو (ملجأ للأيتام)، المعاملة السيئة كانت عنوان واحد لكل من تعامل معها هي ورفيقاتها، الملابس الجميلة والطعام الشهي لم تعرفهم إلا في مناسبات خاصة.

خمس سنوات قضتها في دار الرعاية تلك لم تعرف فيهم إلا الخوف والجوع، لم تشعر بالدفء ولم تغمض عينيها باطمئنان، كل ليلة تتكور على نفسها تحت الغطاء تضع يديها على أذنيها وتراقب بعينيها ذلك الشبح، الذي يتسلل إلى العنبر في الظلام وبأقدام خبيرة بالمكان، يتحرك نحو الأسِّرة بهدوء من يعرف هدفه، ثم يخرج ساحبا إحدى رفيقاتها، التي تعود بعد بعض الوقت لتتكوم في السرير المعدني تبكي وتئن، وفي اليوم التالي تراها وقد انطفأ الضوء بعينيها وليلة بعد ليلة تذبل وتنزوي ولا تنطق بكلمة عما حدث، إلى أن جاء اليوم الذي أُخذت فيه صديقتها المقربة ولم تعد بعدها، والكلام الذي سمعته في اليوم التالي عن العثور على جثتها التي غطت الدماء نصفها السفلي.

الخوف الذي منعها من النوم والذي تضاعف تلك الليلة حين توقف الشبح عند سريرها وامتدت يده لتعبث بجسدها المرتجف، ليتردد الصوت بقوة في رأسها «همي يابديعة، مدي رجلك» فمدت يدها وقبضت على الكيس الذي كانت تخبئه تحت وسادتها، ثم اندفعت تقفز من السرير مهرولة فاندفع خلفها محاولا عرقلتها والقبض عليها، كانت تعبر طرقات الدار تتخبط في الحوائط، ثم

تتدحرج علىٰ السلالم، يلاحقها دبيب أقدامه وصوت لهاثه، إلىٰ أن وجدت نفسها بعد دقائق في الشارع فأطلقت لقدميها العنان.

عادت تتلفت حولها مرتعبة من ظلام الليل، لملمت قدميها تحت جلبابها وانزوت خلف إحدىٰ السيارات الواقفة بجوار الرصيف، قربت قطعة الخبز إلىٰ فمها وأخذت منها قضمة مضغتها بين أسنانها، اقترب أحد كلاب الشارع يتشممها فمدت له يدها بقطعة الخبز، نظر إليها ثم التقطها وجلس يأكلها ثم نام مطمئنا بها؛ فغفت بجواره.

❊ ❊ ❊

ضَياع

يوجد مكان فارغ في عقلي، في قلبي، في وريدي، وبين دمائي! أشعر بحاجتي إليه ليملأ هذا الفراغ..

كنت أقاوم هذا الاحتياج، وكلما حاولتُ، ازدادت تلك الحاجة، وكلما ازداد احتياجي، اجتاحني الغضب والخوف والرغبة في تقطيع أوردتي التي تصرخ طلبا له.

نبضات قلبي واهنة، روحي تتصاعد تود مفارقتي، أعترف بضعفي تجاهه، نفسي تحاسبني، وأنا أتهمها باقتيادي لهذا المصير.

بِتُ أعلم أنه في يوم ما، ستكون نهايتي في جرعة منه.

❊ ❊ ❊

سيجارتين

بعد ساعة كاملة كنت أجلس فيها أمامها، أحذرها من المضاعفات الخطيرة التي يمكن أن تحدث له إن لم تلتزم بتعليمات الطبيب، أشارت إليه:

- مش بيرضىٰ ياكل، مش قادرة عليه..

كان والدي يشير بيده ناحيتها يحاول أن يخبرني بشيء والدموع تلمع في عينيه، ثم رفع رأسه ونظر ناحية الدولاب، فقالت: عاوز السجاير، خبيتها منه، الدكتور مانعها.

قمت وربت علىٰ كتفه وقبلت رأسه فسالت دموعه، كان قلبي يتمزق وأنا أتذكره وهو بكامل عافيته عندما كنا صغارًا، حين كان يدخل البيت فنختبئ خوفا منه ولا يطلع لنا حِس، وصوته الذي كان يهز البيت حين يغضب، وجلوسه وضحكاته معنا في سهراتنا أمام التلفاز.

كانت حالته الصحية قد ساءت بعد إصابته بجلطات دماغية متكررة، أدت لضعف في حركة نصف جسده الأيمن وثقل في اللسان.

كنت أحاول التخفيف عنه، ومحايلته حتىٰ يأكل طعامه ويتناول دواءه، فقلت لها أمامه:

- خلاص يا ماما، سيجارتين كل كام يوم مش هيحصل حاجة، ثم التفتُّ ناحيته وأنا أبتسم، ورفعت إصبعين: اتنين بس، اتفقنا؟

ما إن نطقت بتلك الكلمات حتىٰ أضاء وجهه ولمعت عيناه وهو ينظر لي ثم ينظر لها، وكأنه يخبرها أنني أنصفته ونصرته عليها.

كلما ذهبت لزيارته، كنت أرىٰ الرضا في عينيه والبسمة علىٰ شفتيه، فقد كنت أُسَرِّي عنه بحكاياتي معه، إلا أنني - في زيارتي الأخيرة - لاحظت أن حالته النفسية قد ساءت بعد مكوثه الطويل بالمنزل وملازمته للفراش، فأشرت عليها أن نطلب من أخي أن يصطحبه للجلوس في المقهىٰ مرة أو مرتين في الأسبوع ليرىٰ أصدقاءه ويدخن السيجارتين خارج المنزل، فوافقت وكانت سعادته كبيرة لذلك.

غير أنه لم يمر أسبوعان علىٰ حديثي لها حتىٰ جاءني اتصال منها، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، ما إن فتحت الهاتف لأرد إلا وقد انطلق لسانها بالكلام:

– أبوكي تعبان حصلينا بسرعة علىٰ المستشفىٰ.

في صالة الطوارئ، بعد الفحص وعمل أشعة مقطعية علىٰ الرأس والصدر، كانت النتيجة إصابته بجلطة دماغية جديدة، وكذلك التهاب شديد بالرئتين، أكد الطبيب المعالج علىٰ أن ما حدث هو نتيجة للإفراط في التدخين، كان كلام الطبيب عن التدخين الزائد صادمًا لي فالتفت إليها لأستفسر، فكان ردها أنه كان ينزل للقهوة معه سيجارتين ويعود والعلبة تكاد تكون ممتلئة!

بعد أن أمضىٰ يومين محجوزًا تحت الملاحظة بالمستشفىٰ عاد للمنزل، كنت أذهب إليه كل يومٍ مرتين صباحًا ومساءً لإعطائه الحقن التي كتبها الطبيب لعلاجه وأمر بتكرارها عدة مرات، لم أصدق ما حدث وصدمتي وألمي كانا كبيرين؛ عندما رأيت نظراته تتحول من فرح لاستقبالي إلىٰ فزع من دخولي غرفته، اختنقت بدموعي وأنا أرىٰ عيونه المصوبة بخوف وألم للحقنة التي كنت أمسكها بيدي؛ استعدادًا لغرسها بجسده الواهن.

❊ ❊ ❊

براءة

عبر هذه النافذة، كنت أراها كل يوم، بنفس هيئتها، تأتي من هنا، وتذهب إلىٰ هناك، كنت كلما رأيتها تذكرت ما أخبروني به، بأنها هي التي كانت تنقل لهم أخباري، وتتسبب في عقابي.

كانت لا تكف عن المرور أمام نافذتي وكأنها تتلصص عليّ مجددًا، كنت قد فرغ صبري فقررت مراقبتها، متَابعتها أرهقتني فقد كانت أخف مني وأسرع.

كنت قد اعتدت رؤيتها عن قرب، عرفت ما تحبه ويجعلها تقترب وتبقىٰ في المكان أطول وقت ممكن، فأقترب بحذر أتابعها، أراقبها، كم كانت صغيرة، لطيفة ورقيقة.

في آخر مرة رأيتها، حاولت الإمساك بها، لكنها انتبهت لوجودي ففزعت وفرت محلقة بعيدا!

حزنت كثيرا لأنني لم أكن أريد أذيتها، كنت فقط أود أن أسألها:

- لم فعلت ذلك؟! لم أَخبرتهم؟!

كنت أراقبها وهي تحلق مبتعدة، وأقول لنفسي:

- كانوا يكذبون.

❊ ❊ ❊

فُتنة

تفاجـأ الجميـع بسـكن «فُتْنَـة» في بيـت الأسـتاذ عصـام، مثلمـا فاجـأهم مـن قبـل مغـادرة زوجتـه وبيـدها بناتهـا ذات المسـكن، وهـي التـي كانـت تقـف علىٰ بنائـه (طوبـة طوبـة) كلمـا وصـلتها دفعــة ماليــة جديــدة مــن زوجهــا حــين كــان مســافراً للعمــل بالكويت.

فتنة التي سكنت البيت، بعد أن رحلت عن بيت زوجها السابق تاركة فيه عمرها الفائت، ظلت اسمًا علىٰ مسمىٰ فهي جميلة بيضاء مربربة تتهافت عليها أنظار الرجال.

كانت النساء قد خرجن من الشبابيك ليتابعن ما يحدث، قالت إحداهن: «إمتىٰ رجعت المايـة لمجاريها؟!» وسألت أخرىٰ عن سر الحكاية...

فـردت عليهـا بـأن الأسـتاذ عصـام كـان يحبهـا قبـل زواجـه مـن أم بناتـه، وأن ظروفـه الماديـة هـي السـبب في رفـض أهلهـا لـه، وتزوجهـا المعلـم رضـا تـاجر الخشـب، وأنهـا لـم تطـق عشـرته

وطلبت الطلاق لأنه تزوج عليها بعد أن فقد الأمل في أن تنجب له ولدًا ليرث ماله (المتلتل) أو حتىٰ بنتا ليتشرط علىٰ خُطَّابِها.

ردت عليها ثالثة: «طالما الحكاية كده يبقىٰ اتجوزها، الحرباية شالت الجمل بما حمل، رجالة ما يملا عينها إلا التراب»

قبل أن تبصم فتنة علىٰ ذيل وثيقة زواجها كانت قد اشترطت علىٰ عصام أن يكون البيت لها وحدها، فخضع، ولم تعاتبه أم البنات، لكنها رقدت بحسرتها.

الجيران يرون فتنة كل يوم وهي تنشر علىٰ الأحبال أشكال وألوان من الملابس وقمصان النوم المدندشة، ويتغامزون: «خليه يتبسط يومين، بكرا يفوق ويرجع لأم بناته»

مرت الشهور، وعصام لم يفق، ولم يرجع، ولم يستجد أمر سوىٰ أن فتنة صارت تمشي في الحارة بسبب وبغير سبب، وهي تُكَسِّم العباءة علىٰ بطنها المنتفخ والعيون تبحلق فيها، تكاد أن تخترق بطنها.

ولما كانت فتنة لم تعدم الوسيلة في معرفة أخبار مطلقها، فقد علمت أنه طلق زوجته الثانية ويبحث عن ثالثة لتنجب له الولد أو البنت، فمشت نحو مخزنه، حيث يجلس كصاحب مال على ماله، وحين كانت تمر أمامه وضعت يدها على بطنها وضحكت وهي تنظر للناحية الأخرى؛ فوقع (لَيّ) الشيشة من يده، وزعق في صبي القهوة ليحضر له نارًا وتعميرة بدلاً عن التي انطفأت.

لم تحتمل زوجة الأستاذ عصام غدره بها، فبعد أن رقدت عاجزة، ماتت بقهرة قلبها، فأراحت واستراحت، لكن راحته ينغصها ثلاث بنات لا يصح أن يبقين بمفردهن في بيت بلا رجل، فلم يجد حلاً إلا أن يأخذهن للعيش معه في البيت الجديد، والذي صار رسميًا بورقة كتبها محامٍ بيت «الست فتنة» بعد أن انتفخ بطنها.

لكن لم تدس قدم أي من بناته سلم البيت، حيث تكومن في ركن الحوش ينظرن إلى فتنة التي تقف أعلى البسطة تحمل بطنها فوق كفيها موجهة حديثها لأبو البنات؛ لتخيره بين الولد الذي تحمله ببطنها وبين وجودهن معها بالبيت.

أسبوع ثقيل قضاه أبو البنات مترقبًا خروج ابنه من هذا البطن المنتفخ، وقضته البنات بمفردهن في البيت القديم، دون أن يدق بابهن أحد، إلا اليوم، حيث دخل الأستاذ عصام عليهن متعبًا بعد أن أمضىٰ ليلة عصيبة بالمستشفىٰ حيث وضعت له فتنة ابنته الرابعة.

❊ ❊ ❊

زيارة

مضىٰ وقتٌ طويلٌ لم يزرني فيه أبنائي، لكنّني لست غاضبة منهم، فهم بلا شك قد شغلتهم أمور الحياة مثلما كنت أنا أنشغل عن والدتي، كما صار لديهم أبناء يستنزفون وقتهم مثلما كانوا هم في الماضي يستنزفون وقتي.

أتشوق لزيارة منهم، فقد اقترب العيد، يملؤني اليقين أنهم لن يفوِّتوا هذا اليوم، فهم يعلمون انتظاري ولهفتي للشعور بهم حولي.

لكنهم لا يعلمون أن هذه النباتات التي غرسوها بالقرب مني هي أيضـًا بحاجة إليهم، فقد ذبلت بالرغم من أن أناسًا آخرين يروونها، ليتهم يعلمون أنها في انتظار أيديهم، هم فقط، لا أحد غيرهم، وأنها بحاجة إلىٰ مودتهم مثلما أنا بحاجة إليها.

في آخر زيارة، منذ وقت طويل، كنت أشم رائحتهم، وأنصت لأصواتهم، أُمَيِّز صوت أكبرهم وأصغرهم، لم آنستني حكاياتهم لبعضهم البعض عني، وتندرهم بمواقف بعينها كنت فيها معهم،

فيضحكون أحيانًا، أو يصمتون ويأخذهم البكاء أحيانًا أخرى، غير أنهم لم يغادروا يومًا ويتركوني؛ إلا بعد أن تغمرني دعواتهم وصلواتهم لروحي.

❊ ❊ ❊

قلبُ أمّ

بعد تَخَرُّجي بفترة قصيرة، تسلمتُ عملي كأخصائية اجتماعية مقيمة بدار المسنين، لم يكن منبع سعادتي هو أن تلك الوظيفة ستأمن لي دخلًا أيًا ما كان، لكن لأنها ستمنحني دفئًا قضيت طفولتي وصباي أبحث عنه.

تسلمتُ ملفات نزيلات الدار؛ فقضيت الليل أقرأها، كلهن متشابهات في الظروف ومتقاربات في السن، لكن كان لأغلبهن أبناء، إما شغلتهم الحياة، أو أبعدتهم الغربة.

في الصباح، استيقظت متحفزة لمباشرة أولىٰ مهامي في متابعة الحالات عن قرب، قضيت معظم ساعات النهار في المرور علىٰ الغرف، والتعرف علىٰ ساكنيها، كنت أطرق الباب برفق، فإذا ما سمعت التصريح بالدخول، دفعته ودخلت مبتسمة، مر اليوم علىٰ خير عدا هذا الباب طرقته ولا مجيب، سألت العاملة:

- هي الأوضة دي فاضية؟
- لأ يا أستاذة... تلاقي الحاجة فاطمة في الجنينة زي عادتها.

توجهت لحديقة الدار أبحث عن الحاجة فاطمة، رأيتها من بعيد، جالسة بهدوء مرسلة بصرها للسماء، وعلىٰ وجهها ابتسامة باهتة، لا أعلم ما حدث لي عند اقترابي منها، لماذا تأثرت كثيرًا بملامحها التي تركت السنوات علامات قاسية عليه، كانت عيناها جميلتين، إلا أن نظراتها تنطقُ بالحزنِ العميق، وكأنّها بئرٌ لا قرار لها، منحنيةُ الظهر؛ كأنّها تحملُ جبالَ العالمِ علىٰ عاتقها.

جلست بجانبها، ومددت يدي لأصافحها، أخذت يدي ووضعتها بين يديها، ثم رفعت وجهها نحوي، وبابتسامة أمومية سألتني:

- إنتي مين يا بنتي؟

أخبرتها أنني الإحصائية الاجتماعية المقيمة بالدار، ربتت علىٰ ظهر يدي وقالت:

- أهلا وسهلا يابنتي... نورتي..

ثم أعادت عينيها مثلما كانتا صاعدتين تجاه السماء، فجلسنا صامتتين! حتىٰ جاءت العاملة واصطحبتها لغرفتها.

كان نهار اليوم الأول لي بالدار قد انقضى، وأغلقت علي باب حجرتي وقد هدأت الدار إلا من صوت مذياع أو تلفاز، أو من صوت أنين يأتي من إحدى تلك الغرفات المغلقة.

لم تفارقني ليلتها ملامح وجه تلك المرأة، فابتسامتها ونظرة عينيها تركتا بداخلي حزنـًا، قمت وأحضرت الملفات، لم أكن أعرف اسمها كاملا، كان بين يدي ثلاث ملفات باسم فاطمة، فبحثت عن صورتها داخل كل ملف حتى عثرت عليها، حاولت البحث عن معلومات عنها، لكن كانت معلومات الملف محدودة.

في صباح اليوم التالي قررت أن أعرف عنها كل شيء، سألت العاملات عنها، وعلمت أن لها ولدين يزورانها ويقضيان معها بعض الوقت، انتظرت يوم الزيارة بشغف، استيقظت مبكرا وأنهيت ما علَيّ من عمل، ثم توجهت إلى الحديقة، وقفت من بعيد فرأيتهما يجلسان معها، شابان يشبهانها كثيرًا، لكن وعلى عكسها، كانت القسوة والجدية تبدوان على وجهيهما، ويبدوا من ملابسهما _ذات الماركة الغالية_ أنهما ذوي مراكز مرموقة، كنت أحرك بصري بينها وبينهما، لاحظت أن حزنها لم يتبدل لرؤيتهما،

نفس النظرة الحزينة والابتسامة الباهتة! استدرتُ عائدة إلىٰ مبنىٰ الدار، وطلبت من العاملة أن تبلغهما برغبتي في لقائهما.

كنت أجلس بمكتبي وأنا ما زلت أراقبهم عبر نافذتي، حتىٰ رأيتهما يقفان ويقبلانها، ثم يسيران خلف العاملة نحو المبنىٰ، وضعتُ ملفها أمامي وانتظرت دخولهما.

عرَّفتُهما بنفسي، بادرني أحدهما وعرفني بنفسه...

- حسام

ثم أشار إلىٰ أخيه الجالس أمامه...

- أخي الأصغر مازن.

سألتهما عنها، وعن سبب وجودها بالدار وما لاحظته من حالتها النفسية، وسبب الحزن الدائم المرسوم علىٰ وجهها؟!

أخبرني ابنها الأكبر أنّها هي من طلبت الدخولَ إلىٰ الدّار، وأصرّت عليه، وأنها هنا في أمان، وأنهما مطمئنان عليها، استغربت لرده:

- ازاي تكونوا مطمنين وهي بالحالة النفسية دي؟!
- حالة إيه يا أستاذة؟!

- الست فاطمة حالتها النفسية سيئة، ده واضح جدًا، أنا لاحظت ده رغم إني بقالي هنا أسبوع

أشاح ابنها الأصغر بيده وهو ينظر لي، ثم لأخيه..

- أنا شايف إنها بخير، متكبريش الموضوع، ولا إيه يا حسام؟!

أزعجني كثيرًا رده ولا مبالاته، حتىٰ أنني انتفضت من خلف مكتبي وكاد صوتي يرتفع، تمالكت نفسي حتىٰ لا يظهر انفعالي الزائد، ترقرقت الدموع في عيني، فاتجهت بنظري للشباك أحدث نفسي:

- «آهٍ من جحودكما، فأنتما لم تجربا حياة اليتم مثلي، ليت لي أم مثلها كنت جلست عند قدميها أخدمها»

لكنني أمسكت لساني، ثم انتبهت علىٰ صوتيهما يستأذنان للانصراف، فبادرتهما:

- لكن كلامنا مخلصش...

لكنهما انصرفا، علىٰ وعد بلقاء آخر.

كنت أقف خلف النافذة أتابعهما، فرأيتهما يتجاذبان أطراف الحديث وكأنهما يتجادلان فيما بينهما، كانت المسافة ما بيننا تحول دون سماع كلامهما جيداً، غير أن ما وصل سمعي هو اتهام كل منهما للآخر، وأنه هو وزوجته السبب في حالة أمهما وما وصلت إليه.

في المساء أثناء مروري اليومي للاطمئنان علىٰ النزلاء، مررتُ من أمام باب غرفتها، سمعت صوت أنينها، وعرفت أن هذا هو الصوت الذي كنت أسمعه ليلًا وأنا في غرفتي، طرقت بابها برفق، ثم دفعته ودخلت، وجدتها جالسة علىٰ سريرها تمسكُ بصورة بين يديها وكأنها تحتضنها، لاحظت أن (الزيارة) التي أحضرها ولداها، مازالت موضوعة علىٰ المنضدة كما هي، لم تمسسها يدها، كانت تتمتم بكلمات مختلطة بالبكاء، حين اقتربت عرفت أن الصورة لابنيها، فجلست بجانبها، كنت أشعر باحتياجي لاحتضانها، لكنني خجلت وقمت بالتربيت علىٰ كتفها..

- اوعي تزعلي منهم، ادعي ربنا يهديهم، ده دعاء الأم مستجاب؟!

رفعت رأسها ونظرت إليّ وابتسمت والدموع في عينيها...

– لا يابنتي، انتي فاكرة إني زعلانة ؟! أنا بس خايفة عليهم من سداد الدين.

سحبت يدي من علىٰ كتفها لأخفي الدموع التي غلبتني، فبادرت باحتضاني.

وبكينا.

❊ ❊ ❊

بيني وبينها

جلستُ بجانبها، وأنا أعتزم إخبارها بموافقتي، كنت أرتب الكلمات في سري:

«أنا موافقة، ولم لا؟! وقد وعد لي بحصة في شركته الجديدة»

لكنها، التفتت نحوي وكأنها كانت تتسمع كلماتي وأنا أرتبها، سألتني فجأة:

- هل بعد فقد الروح حياة ؟

نظرت لها مستفسرة:

- ماذا تقصدين؟!

تأملتني بعينين دامعتين، بعد أن وضعت يدها علىٰ كتفي، هزتني بلطف، وأكملت:

- ستوافقين

فهززت رأسي وأنا أنظر في عينيها، قلت:

- أبـي قـال لـن تخسـري.... قـال... الفـرص لا تنتظـر ولا تتكرر.

نظرتْ طويلًا في عينيَّ، وغامت عيناها كأنها تتذكر ماضٍ بعيد، ثم تركتني لتجلس علىٰ الكرسي الذي يعلوه صورة زفافهما، وقد وقف أبي متأنقًا مزهواً وهي بجواره فاتنة بوجهها المشرق، وتحت قدميها باقة كبيرة من الورود استقرت علىٰ طرف فستانها.

أنزلت عينيَّ نحوها، وقد جَلَسَتْ منحنية واضعة رأسها الأشيب بين كفيها الذين قد نفرت عروقهما من تحت جلد رقيق مجعد.. تذكرتُ كل مرة سمعتها تؤنب نفسها علىٰ اختيارها، تذكرتُ كم تَحَمَّلَتْ قسوته ونزواته من أجلنا، وما فعله بها حين حاولت الانفصال عنه.

اقتربت منها واحتضنتها، ثم رفعتُ كفها لفمي قبلته وابتسمت:

«صدق أبي، الفرص لا تنتظر ولا تتكرر، ولكن أيضًا، العمر لا يأتي إلا مرة واحدة»

❊ ❊ ❊

الموسم

وَقَفَت أمام محل الحلويات بتردد تقدم رجل وتؤخر الأخرىٰ، تطالع الزحام بقلق شديد، فغدا ليلة الثاني عشر من ربيعٍ الأول وهي قد وعدت ابنتها، فتحت البوك ونظرت بداخله ثم مدت يدها وقبضت بين أصابعها وكفها علىٰ الخمسين جنيها التي كانت قد احتجزتها جانبا بعدما دفعت القسط الشهري لجهاز ابنتها الذي أكملته بالدَّيِّن بعد وفاة زوجها، تقدمت خطوة نحو الزحام ووقفت تنتظر دورها وعندما أصبحت أمام البائع سألته عن ثمن كيلو الحلوىٰ المُشَكَّلة، فأجابها وهو يمسح الرخام أمامه ويرتب العلب:

- بأربعين، أوزن لك كام كيلو؟

نظرت للخمسين جنيها التي بين أصابعها بتوتر ثم رفعت رأسها وبصوت خافت سألته عن حلوىٰ بسعر أقل؟!..

حوَّل نظره عنها ملتفتًا للزبون الواقف بجوارها ويقول:

- لأ، معندناش، أأمرني ياحاج؟!

نقلت بصرها بين الرجل ويده وهو يناول البائع ورقتين من فئة المئتي جنيه ويطلب خمس علب بكل واحدة اتنين كيلو، أغلقت كفها علىٰ ما به وانسحبت تجر قدميها من بين الناس.

مشت خطوتين وهي تحدث نفسها...

«قالت من المحل ده، حماتها هتعايرها، أعمل إيه؟!»

رفعت يدها تتحسس الحلق المتدلي من أذنها تحت الطرحة الملفوفة علىٰ رأسها ثم التفتت خلفها تنظر للشارع، ظلت بضع دقائق تحاور نفسها ثم حسمت أمرها وتوجهت نحو أحد محلات الذهب، دخلته ثم خرجت بعد دقائق ممسكة بالبوك الذي أقفلت كفها عليه ثم وقفت تجفف دموعها بطرف كُمها، أخذت نفسا عميقا وعدلت طرحتها ثم عادت لمحل الحلويات مرة أخرىٰ ووقفت في الزحام.

عندما أصبحت أمام البائع، بادرها قائلاً:

- قولتلك معندناش..

ففتحت البوك وأخرجت منه ورقة بمئتي جنيه وبصوت مسموع طلبت منه أن يُشَكِّل لها عُلبتين، في كل واحدة اتنين كيلو..

ثـم رفعـت رأسـها وأشـارت بيـدها لصـف عـرائس الحلـوىٰ وهـي تقول:

- لف لي واحدة كبيرة.

كانت الساعة قد تجاوزت السـابعة مسـاءً عنـدما طرقـت بـاب شـقة ابنتهـا العـروس التـي لـم يفـت علـىٰ زواجهـا شـهرين، والتـي مـا إن فتحت الباب ورأتها احتضنتها وهي وترفع صوتها بالترحيب:

- اتفضلي ياماما، تعيشي وتجيبي..

دخلت إلىٰ وسط الصالة ووضعت الكيس الذي به علـب الحلـوىٰ والعروسـة الحـلاوة علـىٰ ترابيـزة السـفرة، خـرج زوج ابنتهـا مـن الغرفة مرحبًا بها:

- خطوة عزيزة ياحماتي

ثم وقف أمام العلب، مد يده يرفعها ويضعها مرة أخـرىٰ كمـن يـزن شيئـًا، وهو يقول:

- مكانلوش لزوم التعب؟!..

انسحب بعدها إلىٰ غرفة النوم وهو يشير إلىٰ سماح لتتبعه.

جلسـت علـىٰ الأنتريـه الـذي اختارتـه أم العـريس لـرخص ثمنـه، وحلفت ألف يمين ما يدخل بيت ابنهـا غيـره، واضـطرت ابنتهـا أن تقبل به رُغمـا عنهـا وإلا تكـون طماعـة ومـش بنـت أصـول، أدارت وجههـا تنظـر للشاشـة المعلقـة علـىٰ الحـائط، تـلألأت الـدموع في عينيها وهي تتذكر بكاء ابنتها وتهديد العريس بإلغـاء الزفـاف إن لـم تكـن الشاشـة أربعـين بوصـة، والثلاجـة التـي يجـب أن تكـون سـتة عشر قدم وإلا أكلت الناس وشهم كما قالت أمه.

هزت رأسـها برضـا وارتسم شـبح ابتسـامة علـىٰ وجههـا، ثـم رفعـت كفها تُقبله وش وضـهر وهـي تحمـد الله أنهـا سـترت ابنتهـا حتـىٰ لا تعيرها حماتهـا بفقـر أهلهـا، لكنهـا انتفضـت واقفـة وكـأن كفًـا لطـم وجهها؛ عندما سمعت زوج ابنتها يقول:

- إيه اللي أمك جيباه ده؟! بالذمة مـش مكسـوفة؟! ده موسـم عروسة؟! أقول لأمي إيه؟

لـم تـدرِ كيـف جـرَّت قـدميها ومشـت نحـو البـاب الـذي فتحتـه وانطلقت إلىٰ الشارع متعثرة الخطوات تتحسس الثقب في طـرف أذنها.

تمرُّد

أكـادُ أشـعرُ بـه يرتعـدُ خوفًـا وقلقًـا منّـي، تصـمُّ أذنيَّ أصـواتُ صـريرِ رفوفِه، كلّما اقتربتُ منه سمعتُ صوتَ أنينه، يكادُ ينطقُ:

«جاءت معذِّبتي»

أتساءلُ ما ذنبي؟!

فأنا عاشقةٌ للموضة، تُثيرُ شهيَّتي الملابسُ. الإكسسوار. الحقائبُ والأحذية، كلّما سنحت ليَ الفرصةُ لاقتناءِ المزيدِ، أنهلُ منها ما استطعت.

اليومَ عدتُ محمَّلةً بما طالته يدايَ، أو بالأحرىٰ ما توقفتْ عنده حافظة نقودي، وقفتُ أمامَه أجول بعينيّ، باحثة عن مكان أودع فيه حِملي، حشرت ما استطعت منهم فوق وتحت الأرفُف وعلىٰ الشمَّاعاتِ وبينها، بينما كنت أحاول توسيع مكان للمزيد، كنت أتأملُ مقتنياتي الثمينة، لاحظتُ أنّني أمتلكُ الكثيرَ منها، حتّىٰ أنّ معظمها لم أرتدِهِ يومًا، مع ذلك لم أتوقف عن اقتناء المزيد، حتىٰ أثقلت كاهله بها.

أثناء وقوفي أمامه بعدما حشرت ما تبقىٰ معي في جوفه متممة عملي بداخله، منتشية، مزهوة بفعلي، كنت ما زلت أتأمله، أبحث بداخله عن مكان يمكن أن يتسع لجولة مشتريات أخرىٰ، وما كدت أمد يديَّ لتحري رفوفه، إلا وقد اهتز وارتعش ثم انتفض بقوة، تراجعتُ خطوةً؛ فإذا به ينهارُ فوقي، قاذفًا ما في جوفه بوجهي.

❊ ❊ ❊

يمين طلاق

«لو خرجتي من باب البيت هتكوني طالق»

كانت هذه آخر جملة سَمِعَتْها منه قبل تصميمها على الذهاب إلى الحفل، تبدو متماسكة، تخفي ما يدور بنفسها بابتسامة هادئة.

شَردت قليلاً بذاكرتها، تسترجع يوم دخلت عليها أمها تبتسم في سعادة، معلنة لها عن تقدم عريس (لُقْطَة) رفعت رأسها عن كتابٍ بين يديها، وبابتسامة باهتة على شفتيها تساءلت:

- ماذا؟!
- عريس! ولقطة!، في نفس الوقت؟!

حاولت أمها إقناعها بأنه مناسب من كل الجهات، فهو شاب وسيم والده تاجر كبير، أي أنها ستعيش مرتاحة، تضحك وتسألها:

- ماذا عن تعليمه؟ والتوافق الفكري؟!

ترد أمها:

- تعليم إيه؟ هنفصل عريس على مقاسك، مش شايفة جارتنا بناتها الأصغر منك، كل واحدة معاها كام عيل.

مع ضغط الأم وأفراد عائلتها، توافق على فترة خطوبة تختبره فيها، كلما وجدت ثغرة تفسخ بها الخطبة، ترجعها أمها عن قرارها، ويثنيها أيضا خطيبها المتمسك بها مهما فعلت، بعد شهور تم الزواج، لم يعد أمامها إلا أن تحاول إقناع نفسها أنه سيتغير، وأنها سوف تكيّفه على طباعها.

بعد شهر من الزواج، تبدل حاله، صوته الهادئ تحول لصواعق مدوية، تثقب طبلة أذنيها إذا تباطأت في تنفيذ طلب له، أما عدوه اللدود، فهو ذلك الكتاب الذي يجدها تحتضنه، فينتزعه من بين ذراعيها، يقذفه بعيدًا، مما جعلها لا تقرأ أو تكتب إلا عندما يخرج أو ينام.

حتى وهما نائمان يسجنها بين ذراعيه، تنتزع نفسها بهدوء من بينهما، تُبْعِد ساقه الملتفة على جزئها السفلي، تتسلل لمخبئها بالمطبخ مستخرجة دفترها وأقلامها، تحتضنهم باشتياق، تجلس

علىٰ طاولة الطعام تكتب، ثم تمد يدها فوق الثلاجة تحضر كتابًا تخفيه هناك، تحتضنه وتبكي، تتحسس غلافه الممزق، والدموع تسيل علىٰ خديها، معتذرة له عن هذا الإيذاء.

فجأة يأتيها صوته مدويًا «أين أنتِ؟»

تنتفض من مكانها، بتعجل تخبئ ما بيديها، يدخل عليها المطبخ سائلًا

- ماذا تفعلين هنا الآن؟!

تقول له أي كذبة لتسكته.

في ذلك اليوم كانت قد رجته كثيرًا أن يتركها لتذهب مع صديقاتها الي الحفل حيث سيتم توزيع جوائز مسابقة القصة القصيرة، والتي كانت قد تقدمت لها عبر الإنترنت، كان رفضه قاطعًا، وهو ما دفعها إلىٰ معاندته والخروج علىٰ خلاف رغبته متجاهلة تهديده.

كان صخب الحفل من حولها يمتلئ بالحياة، إلا أنها كانت قد استغرقت في شرودها الذي لم يقطعه إلا اتصال من والدتها التي أتاها صوتها صارخًا بكلمات متلاحقة، وكأنها لا تريد أن تعطي لها فرصة للرد، إلا أنها وفي ثانية من الصمت تمكنت من الرد عليها:

- أيوا يا أمي، افهميني، قولتلك إني خلاص بدأت طريقي ومش راجعة عنه، والحمد لله مفيش أولاد.

أغلقت الهاتف وهي تحاول أن تتمالك نفسها لئلا تبكي.

تبدأ مراسم الحفل، يتجمع الحضور، ثم يبدأ إعلان نتائج المهرجان وتسليم الجوائز، أعلن مقدم الحفل عن أسماء الفائزين واحدًا يلي الآخر. أثناء محاولتها مسح بعض الدموع التي سالت علىٰ خديها، انتبهت علىٰ اسمها ينطق به مقدم الحفل، رفعت عينيها فوجدت زملائها يشيرون لها بالصعود.

❊ ❊ ❊

غربة

لقد وافَقْتُ مرغمة، لم يكن لي أن أختار ما بين أمرين، فلم يمنحني أي فرصة.

كان يقف في ذلك الركن يتصنع الانشغال بطفلته التي تحبو، بينما كنت أنا أقف وسط الغرفة أتلفت بعينيّ نحو تلك الجدران التي شابت معي، ثم تشققت كثنايا شيخوختي، وكأنني أودعها.

كنت أَدُورُ في المكان وكأنني أبحث عن شيء ما، ربما نسيته هنا أو هناك، كنت أضيع الوقت، علني أمكث قليلاً بالقرب منه، فلم يكن لي ما أجمعه سوىٰ بقايا ذكرياتي وما تبق من نفسي، ونَذْر قليل من العمر.

ها أنا أتعكز علىٰ بقاياي، مُسْلِمَة أمري لغربة روح وجسد، فَرَدْتُ له ذراعي فمد لي يده مودعًا، امتلأت عيناي بالدموع، ثم غادرت صامتة متمنية ألا يريه الله مثل عقوقه.

❃ ❃ ❃

لا يراني

جلست تحكي له كعادتها، غير أنها هذه المرة، كانت تتكلم وعيناها مرفوعتان نحوه، وهو الذي طالما استمع إليها وإلىٰ ذات الكلمات، كان يجاهد أن يبدو عليه الاهتمام.

قالت:

- لن أنكر أنه وَفَّرَ لي كل ما حلمت به، إنه ناجح، بل إنه لا يكف عن النجاح، لكنه فاشل أيضًا، نعم، هو فاشلٌ كبير، مخضرم، لقد نجح، وفشل، نجح مرارًا، وفشل مرة واحدة ولكنها كانت كافية لأن تقودني إليك مرارا.

الطبيب الذي يتصنع الاهتمام قد اعتاد علىٰ وقع كلماتها، لقد سمع تلك الكلمات حتىٰ كاد يحفظها، مثلما كاد أن يحفظ حركات أناملها علىٰ مكتبه، إلا أنه ما إن رفع وجهه إليها عرضًا وهو يشعل سيجارته؛ وجدها لا تنظر إلىٰ قدميها كعادتها، بل تنظر إليه بثبات وثقة، وما أن فتح فمه ليتكلم؛ رفعت سبابتها نحوه مشيرة بالرفض، قالت:

- أنا هنا لتسمعني، آتي إليك لتسمعني، أتعرف ما الذي يؤلمني؟

حدق الطبيب بعينيها الباكيتين، فمسحت دموعها بأطراف أصابعها، طوحت شعرها للخلف وقالت:

- أنه لا يراني، يرىٰ نفسه، يرىٰ ما يملكه، يرىٰ رغباته، نجاحه، نظرات الناس له، انبهارهم بما يملك، لكن أنا لا، لا يراني.

كان الطبيب صامتًا مندهشًا، يفكر في رد علىٰ ما سمع، إلا إنها مدت يدها إلىٰ حقيبتها، فتحتها وأخرجت منها خاتمًا ماسيًا، قلَّبَتْهُ بين أصابعها أمام عينيه، وقالت:

- لقد أحضر لي هذا، اختاره غاليًا ليليق به... به هو.

ثم استطردت:

- أتعلم! أنا لا أريد هذا الخاتم، كان يكفيني احتضانه لي، تكفيني لمسة كفيه لخديّ بحنان، لكنه لم يفعل.

كان الطبيب يسمعها ولا يرد مكتفيًا بهز رأسه، رفعت كفها أمام وجهه أشارت إلىٰ جرح كان قد برؤ..

- أنت تعرف أنني حاولت الانتحار، كنت قد حكيت لك من قبل، مع ذلك، لم يرني، لم يكن بمقدوره أن يراني، أو إن أردتَ الحقيقة؛ لم يكن مهتمًا إلا بنظرة الآخرين له وقد أقدمت زوجته علىٰ الانتحار!

كانت كلماتها تلك قد أيقظت كل انتباهٍ لدىٰ الطبيب، حتىٰ أنه كان يتابع ارتعاش شفتيها وارتجاف يديها وهي تمسح دموعها، وتوتر كلماتها وهي تقول:

- حين رأيتُني في عيني غيره، تمنيت لو أن تلك العينان كانتا عينيه هو، لكنها لم تكن، بل لن تكون، وها أنتَ كل مرة تنصحني أن أبتعد عمن رآني، تؤملني وتصف لي المهدئات.

صمتَتْ بضع دقائق، ثم أخذتْ نفسًا عميقًا، ورفعتْ وجهها مرة أخرىٰ نظرت بعيني الطبيب وقالت:

- أتعرف؟!، أنت أيضا ناجح، أنت طبيب ناجح، صدقني لم أعد أشعر بالخجل مما أحكي، لم أعد أتألم من الخيانة،

مسحت دمعة انحدرت من عينيها، حملت حقيبتها ومشت ناحية الباب، ثم استدارت ونظرت للطبيب وقالت:

- أعتقد أنني لم أعد بحاجة إليك.

❊ ❊ ❊

غريب

لا أعلم متىٰ أو كيف تسلل بهدوء! تشبث وامتدت جذوره، ارتوىٰ من دمي، اقتات علىٰ جسدي، كان جائعًا، شَرِهًا! استوطن واطمأن معلنًا انتصاره بذلك النتوء -الذي لامسته يدي صدفة- في أعلىٰ صدري!

❋ ❋ ❋

عشق

كانت نصائحهم لي بالابتعاد عنه تحاصرني أينما ذهبت، وفي كل وقت، لم تكن تلك النصائح إلا لتزيدني ولعًا به، حتىٰ صارت النصائح تحذيرات منه، قالوا:

- «سيكون هذا سبب هلاكك»

كنت أتغافل عن نصائحهم وتحذيراتهم وأندفع إليه، أستخرجه من مخبئه الذي أعددته له بعناية، أحمله بين يديَّ وأتسلل إلىٰ حجرتي، تلك الخلوة التي تليق به، كنت أضعه أمامي وأتحسسه برفق، أنظر إليه من كل اتجاه، أتأمله، أمد يدي نحوه، أدنو منه فيدنو مني، حتىٰ يلامس شفاهي، فيذوب وأذوب.

رغم حرصي علىٰ إخفائه عن أعين الآخرين في مخبئه وفي خلوتي، إلا أن أمري قد افْتُضِحَ، حتىٰ اضطررتُ لارتداء الملابس الواسعة، لعلي أخفي خلفها ما فعله بي، أو أَحُول _ولو مؤقتًا_ دون نظرات التأنيب.

لم تكن الملابس الواسعة حلًا نهائيًا، فها أنا أقف أمام طبيبي، وقد صعدت فوق الميزان، بينما أتاني صوته مُؤنبًا، وهو يشير بإصبعه نحو المؤشر الذي توقف على علامة «١٠٩» آمرًا:

- لقد حذرتُكِ مرارًا، كان عشقك له أقوى من تحذيراتي، يجب أن ينتهي هذا حالا.

❊ ❊ ❊

مصبوغ بالأصفر

منذ أن استأجرت «مدام شروق» الشقة الكائنة بالدور الثالث بعمارة «المعلم سيد» ونساء المنزل يتوجسن منها، فهي كما قالت لهن «الحاجة فاطمة» زوجة صاحب العمارة؛ مطلقة ولها ولدان تتركهما برعاية والدتها معظم الوقت، وأنها متزوجة بزوج جديد، يزورها بشقتها في أوقات متفرقة.

مدام شروق تقضي نصف نهارها بالشقة، تلبس دائما ملابس مكشوفة زيادة عن اللزوم، تقف علىٰ السلم تكلم محصل الكهرباء أو الزبال دون أن تستحي من أحد، مما يثير حفيظة السكان وغيرة الجارات، أما باقي يومها فتقضيه في تجهيز العرائس وصبغ وقص شعر السيدات بمحلها الصغير الذي استأجرته، وعلقت عليه لافتة (كوافير شروق)

رغم أن مدام شروق لا تختلط بجاراتها إلا أنهن كن لا يرتحن لوجودها بينهن، رغم علمهن أنها متزوجة ولها رجل، غير أنهن لم يرونه يزورها أو يبيت عندها، وكان هذا سر استغرابهن وقلقهن منها، إلا أن الحاجة فاطمة زوجة صاحب العمارة أخبرتهن أن

زوج شروق كما علمت من زوجها المعلم سيد؛ يعمل بمحافظة أخرىٰ ويأتي ليومين فقط بالأسبوع يبيتهما عندها، ويسافر ثانية لعمله في الصباح.

دبت الخلافات بين نساء العمارة وأزواجهن، «مُنىٰ» التي تسكن بالدور الثاني لاحظت أن زوجها صار _فجأة_ مهتمًا بأي صوت علىٰ السلم وأنه يتابع الطالع والنازل من العين السحرية للباب، و«مدام سناء» التي تسكن بالدور الرابع انتبهت أيضًا أن زوجها يقضي معظم الوقت الذي يكون فيه بالمنزل في رعاية النباتات التي زرعها حديثًا بالبلكونة، اللافت للنظر أنهن بين ليلة وضحاها تحول لون شعورهن علىٰ اختلاف السن إلىٰ اللون الأصفر.

كانت الحاجة فاطمة تحكي لزوجها ما يحدث في العمارة وحال النساء منذ أن سكنت بها الست شروق، فتعالت ضحكات المعلم سيد وهو يقول لها:

- «والله نسوان مجانين، وانتي ياحاجة مش ناوية تعملي زيهم وتصبغي أصفر؟!»

ضحكت الحاجة فاطمة وقالت:

- «معقول يا حاج، بقىٰ بتقول عليهم مجانين وعاوزني اقلدهم»

قبلها المعلم من رأسها وهو يقول:

- «والله انتي ست العاقلين ياحاجة، لو لفيت الدنيا مش هلاقي في عقلك وطيبة قلبك»

ثم تابع كلامه وهو يهز رأسه:

- «والله يا حاجة شكلي غلطت لما سَكِّنْت الست دي عندنا، أرجع بس من السفر واتلم علىٰ جوزها هقوله يشوفوا لهم شقة تانية، وبناقص وجع دماغ»

كان رد الحاجة فاطمة:

- «الشهادة لله الست في حالها ومحدش بيسمع لها صوت، بس علىٰ قولك ياحاج بناقص وجع دماغ»

بعد مرور عدة أشهر...

ذات مساء سمع السكان صوت طرقات عنيفة على أحد الأبواب وكأن أحدا يريد تكسيره، وتعالى صوت امرأة باتهام لإحداهن بخطف زوجها، اندفع سكان العمارة رجالًا ونساءً لمعرفة ما يحدث، كانت الجلبة عند شقة مدام شروق التي وقفت على باب شقتها تحاول دفع الحاجة فاطمة ومنعها من الدخول، بينما هي -بوزنها الذي كان ضعف وزن شروق ثلاث مرات- تمسكها من ملابسها وشعرها وتكاد أن تضعها تحت قدميها وهي تصرخ:

- «أخرج يا معلم، بقى ده الشغل اللي بتبات فيه كل أسبوع!؟»

❊ ❊ ❊

خمس عيال

حين دَخَلَتْ عليها ابنتها ذات الثلاثة عشر عامًا، صرخت مما رأته، فقد كانت تقف منحنية الظهر متكئة بكوعها علىٰ الحوض واضعة كفها علىٰ فمها لتكتم آهات تتصاعد من أعماقها، بينما يدها الأخرىٰ تحاول احتواء تلك الآلام التي تعتصر بطنها، ودفقات الدم تندفع من بين ساقيها متخذة طريقها بطوال الطرقة بين الحوض وباب الحمام!

أشارت إلىٰ ابنتها أن تقترب منها، وبصوت واهن تختلط فيه الكلمات بالألم همست لها:

- انزلي اندهي لطنط سماح بسرعة.

في ثوان معدودة كانت ابنتها وسماح جارتهم تقفان بجوارها، عندها ضربت سماح علىٰ صدرها وهي تصرخ:

- يا مصيبتي هو عملها، والله لابلغ عنه، كده دمك اتصفىٰ.
- معملش حاجة يا سماح، دا أنا وقعت، محمود غلبان بيشقىٰ علشان العيال.

- هتفضلي تداري عليه لحد ما يجيب أجلك.

في صالة الطوارئ كانت سماح تجري في كل اتجاه، تصرخ: «دكتور بسرعة إلهي يستركوا، دمها اتصفىٰ»

ثم جرت واختفت في ممر شبه معتم وعادت، وهي ما زالت تجري، ومن خلفها تسير الممرضة، التي ألقت نظرة خاطفة، ثم قالت:

- روحي اعملي لها تذكرة.
- حاضر... بس دكتور يشوفها بسرعة الست بتموت.

علىٰ مكتب الاستقبال وقفت سماح أمام الموظف وهي تحسبن: «منه لله، حكمتك يارب، رزق وجه يقتله ويقتلها»

- الاسم إيه؟
- اسمي أنا ياخويا؟
- لأ، اسم المريضة ياست
- آه، سعاد، سعاد عبد الله، اللي ما شافت ريحة السعادة يا كبدي..
- السن كام؟

- والنبي ما اعرف، قول كدا يجي خمسة وتلاتين.

بعد أن أعطته كافة البيانات ـ بحسب معلوماتها ـ أخذت تذكرة الكشف ودخلت غرفة الاستقبال، كانت سعاد ممددة هناك علىٰ سرير حديدي معلق بذراعها الأيمن (كانيولا) موصول بها محلول ملحي يتدلىٰ من حامل بجانب السرير، ينقط ببطء، وهي غائبة عن الوعي، بينما ابنتها سلوىٰ تقف بجوارها ودموعها تغرق وجهها.

سأل الطبيب سماح:

- هي في الشهر الكام
- تقريبا الخامس
- النزيف كتير، نعمل سونار الأول وبعدين نقرر..

في دقائق معدودة كانت سعاد قد نُقلت لغرفة الأشعة، ومع الفحص تبين أن الجنين قد مات، فكان قرار الطبيب أنها تحتاج لعملية فورًا، مضيفًا أنه يجب وجود أحد من أهلها للتوقيع علىٰ إقرار الموافقة، فاقتربت سماح من ابنة سعاد التي كانت لا تزال واقفة بجانب أمها ولا تتوقف عن البكاء:

- كلمي ابوكي خليه يجي..

- أنا خايفة علىٰ ماما..
- كلميه بسرعة، هتبقىٰ كويسة إن شاء الله.

بعد نصف ساعة حضر زوج سعاد، وما إن رأته سماح حتىٰ كادت تتشاجر معه:

- منك لله، عاوز تقتلها..
- انتي هتلبسيني تهمة، وسعي كده خليني اشوف الدكتور عاوز إيه..

أمام غرفة العمليات وقف مصوبًا عينيه إلىٰ ابنته التي انتفضت من نظرته، فاختبأت مرتعشة خلف سماح التي احتضنتها وهي تقول:

- ياقلبي يابنتي، ربنا يقومها بالسلامة علشانك انتي واخواتك..

لكن لم يكد مفعول تلك الكلمات يسري في روح وجسد الصغيرة، حتىٰ امتدت يد أبيها تنتزعها من حضن الجارة التي أمسكت بها مستفسرة:

- آخِد البت علىٰ فين؟!

- انتي مالك..، ثم جر ابنته خلفه وهو يبتعد قليلًا عن مكان الانتظار.

كانت نظرات سلوىٰ لسماح وكأنها ترجوها ألا تتركها، فمشت خلفهما دون أن يشعرا، كان والد سلوىٰ قد أوقفها أمامه في زاوية منعزلة وبدا وكأنه يتوعدها أو يهددها وهو يشير بإصبعه ناحيتها، فاقتربت سماح بقدر ما تستطيع، عندما سمعته يقول لسلوىٰ:

- لو أعرف انك نطقتي بكلمة، هيكون آخر عمرك.
- حاضر، بس والنبي يا بابا متضربهاش تاني.

عندها... اندفعت سماح واختطفت سلوىٰ بين ذراعيها وهي تشير إليه بتهديد:

- منك لله يا مفتري، أنا سمعت كل حاجة.

دفعها من أمامه وهو يصرخ فيها..

- اسكتي، إنتي متعرفيش حاجة، دول خمس عيال أجيب لهم منين؟!

ثم تركهما وخرج!

أثناء إفاقة سعاد من آثار البنج كانت تبحث بعينيها عن ابنتها وعن سماح، فالتقت عيناها بعيني محمود الذي كان يقف هناك بركن الغرفة وعلىٰ وجهه علامات القلق والتوتر، فتدفقت الدموع من عينيها، اقتربت منها سماح تمسح لها دموعها وتربت علىٰ كتفها ثم مسحت علىٰ شعرها..

- اوعي تزعلي، والله لاجيب لك حقك منه، أنا عرفت إللي حصل..
- انتفضت سعاد وهي تمسك بيدها كف سماح..
- لأ معملش حاجة، أنا إللي وقعت، دول خمسة يا سماح، مين هيصرف ويربيهم..

تركت سماح يدها وهي تتراجع غير مصدقة لما تقوله.

- بتضيعي حقك وهتندمي، أنا قلتلك أهو..

بخطوات مترددة اقترب محمود من سرير سعاد، وانحنىٰ ممسكًا بكفها يضعه علىٰ فمه وهو يَدَّعِي البكاء، فنظرت إليه وقد رسمت علىٰ وجهها الباهت ابتسامة مريرة، ثم نزعت يدها من بين كفيه وأدارت وجهها للجهة الأخرىٰ.

المحتويات

❊ ❊ ❊